

ابن إياس

(دراسات وبحوث)

إشراف

د. أحمد عزت عبد الكريم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

ابن إياس

محاضرات ألقيت فى الندوة التى نظمتها
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
بالاشتراك مع
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
والعلوم الاجتماعية

١٦ - ٢١ ديسمبر ١٩٧٣

جمهورية مصر العربية
وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بالاشتراك مع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة
١٩٧٧

ابن إياس

(دراسات وبحوث)

إشراف

د. أحمد عزت عبد الكريم



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٧

المحتوى

الصفحة

- كلمة الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم 7
- كلمة الأستاذ يوسف السباعى 19
- ابن اياس المصرى ومنهجه فى البحث التاريخى
للدكتور فاضل عبد اللطيف الخالدى ٢٥
- البعثات الدبلوماسية لدولة سلاطين المماليك كما وصفها ابن اياس :
للدكتور حسن أحمد محمود ٣٧
- مكانة ابن اياس بين مؤرخى مصر فى العصور الوسطى
للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف ٤٧
- التدهور الاقتصادى فى دولة سلاطين المماليك ، فى ضوء كتابات ابن اياس
للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ٦٣
- التعبيرات الحضارية عند ابن اياس
للدكتور عبد المنعم ماجد ٨٩
- ابن اياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ماكتبه فى كتاب « بدائع الزهور »
للدكتور عبد الرحمن زكى ٩٧
- ابن اياس والفتح العثمانى لمصر
للأستاذ محمد عبد الله عنان ١٣٧

كلمة الأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم
رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

بسم الله نستهل الموسم الثقـــافى للجمعية المصرية للدراسات التاريخية لهذا العام • ونحن نجتمع اليوم وبلادنا تمر فى ظروف تاريخية بالغة الدقة والأهمية ، فاننا نجتاز مرحلة من أخطر مراحل حيـاتنا القومية تتسم بذكريات قريبة عشناها ، وذكريات من البطولة والأمجاد سجلتها قواتنا المسلحة • وهكذا فاننا ننتهز هذه الفرصة لتقديم تحيـة تقدير واجلال لقواتنا المسلحة التى استطاعت أن تصنع لمصر تاريخـا يضاف الى سجل تاريخها الطويل الحافل بالعظمة والمجد • كما أننـا نحنى رءوسنا تحية وعرفانا لأولئك الأبطال الذين ضحوا بأغلى مايملكه الانسان وهو دمه وحياته فى سبيل رفعة الوطن • وأرجو أن نقف بعض الوقت تحية وترحما على أرواح شهدائنا الأبطال •

السيد الأستاذ وزير الثقافة •• أيها السادة :

اعتادت الجمعية التاريخية أن تقيم فى كل عام بالاشتراك مـع المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ندوة علمية، تناقش فيها حياة علم من أعلام المؤرخين المصريين، سيرته، منهجه، أعماله

العلمية ، وقد استن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية هذه السنة الحميدة عن طريق احدى لجانه المتخصصة وهى لجنة التاريخ والآثار، وأذكر أن المجلس اتجه هذا الاتجاه منذ كان الأستاذ يوسف السباعى وزير الثقافة سكرتيرا عاما له، فتلاقت رغبته مع نشاط الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، وكانت نتيجة هذا الالتقاء الندوة التى نحرص كل عام على اقامتها عن أحد المؤرخين المصريين. وقد تذكرون أن المؤرخ (تقى الدين أحمد المقريزى) كان أول من أقامت له الجمعية والمجلس ندوة علمية منذ سنوات ، وكان يشرف على الجمعية فى ذلك الوقت الأستاذ المغفور له الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ثم جمعت البحوث والمقالات التى قدمت عن هذا المؤرخ الى المطبعة وعلى الرغم من أن وقتا طويلا مضى قبل أن تظهر فقد ظهرت فى العام الماضى ، وأعقبتها ندوة عن المؤرخ المصرى (القلقشندى) ، وقد علمت أن هيئة الكتاب قد فرغت من طبع الكتاب الذى احتوى البحوث التى قدمت عنه منذ زمن وجيز ، ثم أقام المجلس بالاشتراك مع الجمعية ندوة عن المؤرخ (عبد الرحمن بن عبد الحكم) ثم ندوة أخرى عن أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى) (١) .

واليوم تبدأ الندوة العلمية التى يقيمها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية عن المؤرخ المصرى (ابن اياس) وهكذا ترون أن أكثر المؤرخين الذين احتفت الجمعية والمجلس بذكراهم على النحو الذى درجنا عليه ينتمون الى القرن الـ ١٥ الميلادى أو القرن الـ ٩ الهجرى عدا ابن عبد الحكم ، وأما الأربعة الآخرون فهم ينتمون الى مدرسة التاريخ المصرى فى القرن الـ ١٥ ويؤلفون سلسلة متصلة الحلقات متتابعة ، آخرها من حيث الترتيب الزمنى هذا المؤرخ المصرى الذى

---

(١) ثم نشر الكتب الخاصة بالقلقشندى وعبد الرحمن بن الحكم وابن تغرى بردى .

نحتفل اليوم بمرور ٤٥٠ عاما على وفاته وهو « محمد بن أحمد بن اياس » المصرى فقد ولد فى عام ١٤٤٨ م بمصر وتوفى بها سنة ١٥٢٣م فيكون قد مضى على وفاته ٤٥٠ عاما .

وسيحتفل المجلس أيضا هذا العام بعد بضعة شهور بمرور ١٥٠ عاما على وفاة مؤرخ مصرى آخر هو الشيخ « عبد الرحمن الجبرتى » والجمعية تستعد منذ الآن بعد أن نوقش الأمر فى لجنـة التاريخ والآثار ومجلس ادارة الجمعية لاعداد ندوة علمية للاحتفـال بذكراه احتفالا علميا يتفق مع ما يتمتع به من مكانة بين المؤرخين المصريين .

ويسرنى أن أعلن ان المجلس بالاشتراك مع الجمعية قد وجهـا الدعوة لحضور ندوة ابن اياس التى نبدأها هذا المساء للجمعية العراقية للتاريخ والآثار لايفاد من يمثلها فى هذه الندوة ، وهكذا تبدأ الجمعية بمساعدة المجلس فى دعوة ممثلين عن الجمعيات التاريخية التى بدأت تتكون فى أقطار مختلفة من الوطن العربى الكبير . وجمعيتنا فى مصر هى أقدم هذه الجمعيات . ونحن لا نألو جهدا فى الاتصال بزملائنا المؤرخين فى سائر البلاد العربية ، وامدادهم بمطبوعات الجمعية وفى مقدمتها المجلة العلمية التى تصدرها سنويا باسم المجـلة التاريخية المصرية . وكانت الجمعية العراقية للتاريخ والآثار ببغداد قد دعت عددا كبيرا من المشتغلين بالتاريخ من المؤرخين العرب والأجانب الى عقد مؤتمر دولى للتـاريخ ببغداد فى مارس ١٩٧٣ ، نوقشت فيه بعض الموضوعات التاريخية والقضايا العربية المعاصرة ، كالحضارة العربية ، والقضية الفلسـطينية ، والمطامع الأجنبية فى الخليج العربى . وقد تشرفت بحضور هذا المؤتمر ممثلا لجمعيتنا ، كما حضره عدد كبير من الأساتذة المصريين وألقوا بحوثا قيمة فى الموضوعات التى نوقشت فى المؤتمر . ويسرنا أننا وجهنـا الدعوة الى الجمعية العراقية للتاريخ والآثار لحضور هذه الندوة ، ويسرنا أنها استجابت للدعوة وأوفدت

ثلاثة من أساتذة التاريخ بجامعة بغداد ممثلين عنها وهم في طريقهم الينا ان شاء الله • ونحن نرجو أن يكون هذا مقدمة للتعاون المثمر مع سائر الجمعيات التاريخية العربية والجامعات العربية • ويسرنا أن عددا من أساتذتها يستجيب لدعوتنا فينشر بعض أبحـاثه فى المجلة التى تصدرها جمعيتنا • ولهذا نرجو من وزارة الثقافة أن تعيننا على أن نتوسع فى الدعوة للندوة التى ستعقد عن « عبد الرحمن الجبرتى وعصره » فى ابريل القادم وندعو اليها أساتذة من المؤرخين ممثلين عن الجمعيات العربية وبعض الأساتذة الأجانب الذين لهم اهتمام خاص بالجبرتى وعصره •

★ ★ ★

أما المؤرخ الذى تبدأ الليلة الندوة العلمية لبحث سيرته ومنهجه وأعماله العلمية فهو « محمد بن أحمد بن اياس » وهو الحلقة الأخيرة من مؤرخى القرن ال ١٥ ، وبذلك يكون كتابه العظيم « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » هو الحلقة الأخيرة فى سلسلة تاريخ مصر فى العصور الوسطى، تلك السلسلة التى بدأها المقريزى فى كتابه «السلوك فى معرفة دول الملوك » ، ثم السخاوى الذى كتب ذيلا لكتاب السلوك، ثم أبو المحاسن الذى كتب « النجوم الزاهرة » ، وأخيرا ابن اياس صاحب كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » •

وقد عاش ابن اياس فى أواخر القرن ال ١٥ وسنوات من القرن ال ١٦ وبذلك أتيح له أن يشهد هذا الحادث الخطير فى تاريخ مصر والعالم العربى ، وهو الفتح العثمانى لهذه البلاد ، وهو المؤرخ الذى سجل أخبار هذا الفتح والسنوات الأولى للحكم العثمانى فى مصر •

حقيقة ان كتابا آخرين كابن زنبل الرمال كتبوا عن الفتح العثمانى لمصر ، ولكنهم لم يصلوا الى المستوى العلمى الذى وصل اليه ابن اياس بأسلوبه ودقته وافاضته في سرد الحوادث ، وبذلك استطاعت

مدرسة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى أن تغطى بهذه السلسلة من المؤلفات التاريخية تاريخ مصر فى القرن الـ ١٥ وأوائل القرن الـ ١٦، لأن ابن اياس ظل يكتب حتى سجل أحداث سنة ١٥٢٢ • وابن اياس ينتمى لأسرة شركسية الأصل ، ولكنه ولد وعاش بمصر فتأثر بهذه الأرض الطيبة التى أنجبته ، وبهذا التاريخ الطويل الذى تنفرد به مصر دون سائر الأقطار • والواقع ان من يقرأ تاريخ ابن اياس يحس أن روح مصر تملكته ، ولهذا نجده فى أوائل كتابه يفرد صفحات طويلة يتحدث فيها عن فضائل مصر ومحاسنها • حقيقة ان ابن اياس لم يأت فى هذا المجال بجديد ، فانه نقل كثيرا مما ذكره المؤرخون المتقدمون شأنه فى ذلك شأن مؤرخى تلك الأيام ، ولكن أصالته الحقيقية تبدو حين يتحدث عن العصر الذى عاش فيه ، أما عن العصور السابقة فكان شأنه فى ذلك شأن المؤرخين السابقين ، ينقل عن المؤرخين المتقدمين • ويبدو أنهم كانوا يعتبرون ذلك العمل أمرا مباحا •

على أية حال نجد تلك الظاهرة واضحة منذ كتب ابن عبد الحكم كتابه الذى يصور تاريخ مصر فى أوائل العصر الاسلامى ، كتب عن نيلها وأهرامها وعن الملوك الجبابرة (يقصد الفراعنة) الذين حكموا مصر • ولا يمكن أن ندعى ان ابن اياس أو غيره من المؤرخين كانوا أصيلين فى هذا الشأن عندما يتحدثون عن آثار مصر وعجائبها ، كانت تأخذهم هذه العظمة وهذه المنشآت الجبارة دون أن يقفوا على حقيقة تاريخ البلاد أو تاريخ هذه المنشآت ، ولكن مجرد اهتمامهم بذكرها والتنويه بعظمتها يدل على انهم — ولو كان نفر منهم من أصول غير مصرية — قد تأثروا بهذه البلاد وبأمجادها وأدركوا أن تاريخها الطويل متصل ، ولهذا كانوا حريصين على أن يبدأوا كتبهم بهذه المعلومات القديمة ، وهى غالبا ما تكون قصصا أو أشبه بالقصص ، كثير منها تشوبه الخرافة • ثم يتحدث ابن اياس بعد هذا عن الدول التى تعاقبت على مصر حتى يصل الى ظهور الاسلام والى فتح العرب لمصر ، وهنا

يبدأ فى الوضوح وينقل عن المؤرخين الاسلاميين السابقين، ويتابع الدول الاسلامية التى قامت فى مصر فى عصر الولاة ، والطولونيين ، والاخشيديين والفاطميين ، والأمويين ، فالمماليك ، وهنا يقترب من العصر الذى عاش فيه ، وكلما اقترب اتسعت دائرة كتابته ، حتى اذا وصل الى الأيام التى عاش فيها ظهرت أصالته ، بحيث يمكن القول انه فى هذا العصر مؤرخ يعتد به ويعتمد عليه •

ويصور ابن اياس الأحداث التى وقعت ويذكرها سـواء منها ما يتصل بالصراع حول الحكم أو السلطة فى مصر بين مختلف البيوت المملوكية ، أو ما يتصل منها بالأحداث الخارجية أو التى لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة بمصر • وقد أعانه على ذلك انه من أسرة شركسية مملوكية ، فهو قريب الصلة بالأمراء الذين عاشـوا فى عهده ونقل أخبارهم ، ولكنه لم يتول ـ مثل بقية الأمراء ـ منصبا من هذه المناصب العسكرية أو الادارية التى كان يحتكرها الأمراء المماليك ، فهو كان من « أبناء الناس » وهذا التعبير يطلق على هذه الطائفة من أبناء الأمراء أو ذراريهم الذين لم يدخلوا فى السلك العسكرى ، وانما أجرى عليهم السلاطين بعض اقطاعات ، وهى مساحات صغيرة أو كبيرة من أرض مصر المزروعة •

كان لابن اياس اقطاع كبير يعيش من دخله ، بحيث كفاه مئونة العمل فى مناصب الدولة ، ويبدو ان مؤرخنا كان فى سعة من الرزق بحيث أصبح يتمتع باستقلال فى الرأى ، فعاش دون أن يتملق السلطان ولكنه فى الوقت نفسه عاش بفضل صلاته مع رجال الدولة ، يقف على أخبار البلاد والبلاط أولا بأول ، ويدونها على طريقة الحوليات سنة بعد أخرى بل شهرا بعد آخر ، بل أحيانا يوما اثر يوم ، اذا كانت الأيام التى تمر به حافلة بالأحداث • واستمر ابن اياس يسجل ويكتب التاريخ ولكن يبدو أنه فى عهد السلطان الغوري امتحن محنة عسيرة ،

اذ سلب منه الاقطاع الذى كان يتعيش منه ، ويبدو أن ذلك جاء نتيجة اضعف الحالة الاقتصادية فى مصر فى ذلك الوقت ، واضطرار السلطان الى ممالأة مماليكه الخاصة على حساب المماليك الآخرين ، فكان لذلك تأثير كبير على ابن اياس فاضطر الى أن يتعرض للسلطان فى أحد مواكبه ، ويقـدم اليه قصيدة يلتمس فيها اعادة اقطاعه اليه فأجابه السلطان الى ما طلب ورد اليه اقطاعه ، وعاد ابن اياس يطمئن الى معيشته وأسلوب حياته • ومما يلفت النظر ان ابن اياس كاد يقصر انتاجه العلمى على الكتابة فى التاريخ دون أن يشتغل بعلوم أخرى كما فعل بعض المؤرخين الذين عاشوا قبله ، اذ انصرف ابن اياس الى كتابة التاريخ باستثناء القليل الذى كتبه فى الجغرافيا والفلك • وأهم ما كتبه دون شك كتابه العظيم « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وقد ظل مخطوطا ونسخه مبعثرة فى مكتبات متعددة ، فى القاهرة واستانبول وبعض العواصم الأوربية حتى أواخر القرن الـ ١٩ حين قامت مطبعة بولاق الأميرية بطبعه فى ثلاثة أجزاء سنة ١٨٩٤ ، وكان هذا دون شك عملا علميا جليلا ، اذ خرج هـذا الأثر النفيس الى النور لأول مرة ، وان لم يظهر الكتاب كاملا ، فقد ظهر ان ثمة مخطوطات أخرى أوفى من المخطوطة التى اعتمدت عليها طبعة بولاق • ومن حسن الحظ أن جمعية المستشرقين الألمان عنيت باخراج طبعةجديدة لبدائع الزهور ضمنتها السنوات الناقصة من طبعة بولاق ، واعتمدت فيها على مخطوطات أخرى لهذا الكتاب موجودة فى مكتبه الفاتح باستانبول، وهى أوفى من مخطوطة دار الكتب المصرية بالقاهرة التى اعتمدت عليها طبعة بولاق •

ونحن اذ نحتفل الليلة بذكرى هذا المؤرخ العظيم فانه يجدر بنا أن نشير الى زميل لنا بذل جهودا كبيرة فى تحقيق ونشر ابن اياس ، فاذا كنا نذكر المستشرقين الألمـان وخاصـة المستشرق Paul Kahle (باول كالا) فينبغى أن نذكر زميلا كريما قضى سنوات طويلة فى

تحقيق هذا العمل العلمى الكبير وهو الأستاذ الدكتور محمد مصطفى الذى كان مديرا لدار الآثار العربية ، وكانت له صلة قوية بابن اياس ومخطوطاته ، وشارك جمعية المستشرقين الألمان فى طبع واخراج بدائع الزهور .

كما أن جمعيتنا ــ الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ــ قد أخرجت له ــ باسمه وحده ــ جزءا من بدائع الزهور فى وقائع الدهور كان ناقصا فى الطبعات الأخرى ، وهو الجزء الذى يشمل تاريخ مصر بين سنة ١٤٥٣ ــ ١٤٦٨ م ، ٨٥٧ ــ ٩٧٢ هـ . ثم انه عندما احترقت النسخ المطبوعة فى المانيا خلال الحرب العالمية الثانية ، أعيد طبع أجزاء من تاريخ ابن اياس فى القاهرة بعناية الأستاذ الدكتور محمد مصطفى وبمعاونة هيئات مصرية منها وزارة الثقافة والارشاد القومى سنة ١٩٦٠ والجمعية المصرية للدراسات التاريخية وغيرهما .

ويسرنى ان الأستاذ الدكتور محمد مصطفى حاضر الآن بيننا فنرحب به ترحيبا خاصا ، ونرجو له أن يمتعه الله بموفور الصحة .

أما هذه الندوة التى ستنعقد جلساتها مساء كل يوم حتى الخميس القادم ، فستلقى فيها عدة بحوث عن ابن اياس ، راعينا فيها الترتيب الزمنى . لكن الزميل المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان سيبدأ الحديث الليلة لأنه موشك على مغادرة البلاد ثم تتوالى البحوث :

فنبدأ بالبحث الذى سيقدمه زملاؤنا أساتذة جامعة بغداد باسم الجمعية العراقية للتاريخ والآثار وموضوعه (المنهج التاريخى لابن اياس) . ثم تلقى الأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف رئيسة قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس بحثا موضوعه (مكانة ابن اياس بين مؤرخى مصر فى العصور الوسطى) ثم يتلوها الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة القاهرة والمعار حاليا لجامعة بيروت العربية ببحث موضوعه

(التدهور الاقتصادى لدولة المماليك فى ضوء كتابات ابن اياس) ثم يلقى الأستاذ الدكتور حسن أحمد محمود أستاذ التاريخ الاسلامى ووكيل كلية الآداب بجامعة القاهرة بحثا عن (البعثات الدبلوماسية لدولة سلاطين المماليك كما وصفها ابن اياس) وفى يوم الأربعاء سيقدم الأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد أستاذ التاريخ الاسلامى ورئيس قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس بحثا بعنوان (التعبيرات الحضارية عند ابن اياس) ثم يلقى الأستاذ الدكتور عبد الرحمن زكى بحثا بعنوان (ابن اياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء كتابه بدائع الزهور) • وفى آخر أيام الندوة يلقى الأستاذان الدكتور عبد اللطيف على بحثا عن « السكة الجركسية فى بدائع الزهور لابن اياس » والدكتور عبد العزيز الشناوى بحثا عن « ابن اياس والسنوات الأولى من الحكم العثمانى » (١) •

وأختم كلمتى بالترحيب بالأستاذ يوسف السباعى وزير الثقافة الذى عودنا منذ كان سكرتيرا عاما للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بحضور هذه الندوات ، كما أرحب بحضراتكم ، ويسرنى أن أدعو الأستاذ يوسف السباعى لافتتاح الندوة •

---

(١) لم يقدم الأستاذان بحثيهما للنشر •

كلمة الأستاذ يوسف السباعي

فى افتتاح ندوة المؤرخ المصرى (ابن إياس)

أيها الأخوات والاخوة

يسعدنى أن أرحب بكم فى هذه الندوة التى تحقق هدفا من الأهداف الأساسية التى انشىء لتحقيقها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . والتى طالما كانت أمنية عزيزة من أمانى، الأولى تلاقى العقول المفكرة ، والمبدعة فى كل فرع من فروع المعرفة التى يضمها المجلس ليتدارس أصحابها بروح المودة ــ وفى جو علمى ــ قضية أو موضوعا يحسون الحاجة الى تدارسه أو بحثه أو القاء مزيد من الضوء عليه ، مشاركين بذلك فى معركتنا الحضارية التى نخوضها اليوم ضد عدو علينا أن نرد كيده فى ميدان الفكر كما رددنا كيده فى ميدان القتال ، فالميدانان متلاحمان ، ولا انتصار فى أحدهما دون انتصار فى الآخر .

ولجنة التاريخ بالمجلس من أولى لجانه التى وعت هذه الحقيقة، فبادرت فى عام ١٩٦١ الى عقد حلقتها الدراسية الأولى فى هذا المكان نفسه ، تدارس المشتركون فيها جوانب من تاريخ أمتنا القديم والحديث فى كل من سوريا ومصر اللتين كان لهما شرف تحمل العبء الأكبر فى

معارك ٦ أكتوبر المجيد من هذا العام ضد العدوان الصهيونى الـذى يذكرنا بمحاولات عدوانية سابقة فاشلة فى تاريخ أمتنا العربية ، وفى هذه المنطقة على وجه الخصوص .

ثم تلا ذلك أربع ندوات عقدتها اللجنة بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التـاريخية عن أربعة ممن تولوا زعامة التـاريخ بمصر الاسلامية وهم : المقريزى ، والقلقشندى ، وابن عبد الحكم ، وأبو المحاسن ابن تغرى بردى .

ويسرنى أن يواصل اليوم السادة أعضاء لجنة التاريخ جهودهم القيمة فى تكريم مؤرخينا واحياء ذكراهم ، ودراسة ما أضافوه الى علم التاريخ من مادة ومنهج ، وبعثهم فى وجدان المعاصرين ، فوقـع الاختيار على مؤرخ خامس هو محمد بن أحمد بن اياس المصرى ، الذى يعتبر واحدا من أبرز مؤرخى القرن التاسع الهجرى فى مصر ، وهو العصر الذى ازدهرت فيه حركة التاريخ وامتازت بالتوسع والاحاطة .

وبالرغم من أن ابن اياس كان سليل أسرة مملوكية ، الا أن مصر بشخصيتها التاريخية وامكاناتها وخصـائصها البشرية والجغـرافية استطاعت ـ كما فعلت مع كثيرين غيره ممن وفدوا عليها ، أن تستوعبه وأن تصهره فى بوتقتها ليصبح واحدا من أخلص أبنائها ، فوقف حياته على التاريخ المصرى من أقدم العصور الى أوائل العصر العثمانى ، لا سيما فى كتابه المشهور بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، هذا الكتاب الضخم الذى شهد له الدارسون بأن أسـلوبه ونمط تأليفه ينم عن شخصية واستقلال فى الرأى قل أن يشاركه فيهما معظم المؤرخين من قبل .

ومما لا شك فيه أن الاهتمام بمؤرخينا مهمة من أجل المهام فى مرحلتنا التاريخية الحاضرة . فالتاريخ ـ كما نعرف ـ هو ذاكرة الأمم وكما يفقد الفرد شخصيته اذا فقـد ذاكرته ، كذلك فان الأمة التى

لا تعرف تاريخها تفقد شخصيتها ودوافع وجودها ومبرراته • ونحن وان كنا لا نجعل ماضينا بديلا عن حاضرنا ؛ الا أن حاضرنا لا يمـــكن أن ينفصل عن هذه الجذور التى تمتد الى سبعة آلاف سنة من الحضارة •• فهذه الجذور هى منبع احساسنا بقوميتنا وشخصيتنا التى تهبنا اليوم روح القتال والرد على التحدى •

ولا ننسى أن نتوجه بالتحية الى جنودنا البواسل صانعى التاريخ بقيادة رئيسنا أنور السادات رافع شعار العلم والايمان ، واثقين أن مصير غزاة القرن العشرين لن يكون ــ بعون الله ــ أفضل من مصـــير الهكسوس وجحافل المغول والتتار والصليبيين •

وختاما أرجو التوفيق لكل من أسهم فى أعمال الندوة ، وللمتفضلين بالحضور ؛ وللجمعية التاريخية التى تسهم اليوم ــ كما ساهمت من قبـــل ــ فى العمل على انجاح هذا اللقاء العلمى القوى الناجح باذن الله •

ابن إيــاس المصــرى
ومنهجه فى البحث التاريخى

للدكتور فاضل عبد اللطيف الخالدى
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

كان لانقطاع ـ سلسلة ـ المؤرخين العباسيين الكبار اثر سقوط ـ بغداد ـ بأيدى المغول ، وزوال ـ الخلافة العباسية ، أن أخذ زمام المبادرة لوصل ما انقطع من تلك السلسلة مؤرخون آخرون ينتمون الى أقطار شتى من العالم الاسلامى •

وقد واصل أولئك المؤرخون الأفذاذ نشاطهم العلمى فى حركة رائعة ، تشكل أعمالهم مع أعمال من سبقوهم من المؤرخين الصورة التى بلغها العالم العربى والاسلامى من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية حتى بداية العصر الحديث •

ولعل أبرز سمات حركة التدوين التاريخى فى القرون المتأخرة التى أعقبت سقوط بغداد ـ ويمكن حصرها فيما بين القرنين الثامن والعاشر للهجرة ، الرابع عشر والسادس عشر للميلاد ـ ظهور طائفة من المؤرخين ، كتبوا مؤلفاتهم على طريقة الحوليات ، وتدل وفرة المعلومات التى دونوها على جهد عظيم فى البحث والمراجعة والنقل والتأليف •

والواقع فالبلاد المصرية استأثرت أكثر من غيرها فى عدد المؤرخين الحوليين والموسوعيين الذين ظهروا فيها وبخاصة فى العصر التركى المملوكى ، ولكن بدخول الأتراك العثمانيين القاهرة فان سلسلة هؤلاء المؤرخين تكاد تنقطع ، وعلى الأخص بموت أحد كبار مؤرخى هذا العصر وهو أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس الحنفى .

ومن المؤرخين المصريين الذين عاشوا فى العصر التركى المملوكى وسجلوا أحداثه ووقائعه : بيبرس الدوادار فى « زبدة الفكرة » ، وابن دقماق فى « الجوهر الثمين » ، وابن أيبك الدوادار فى « الدرر الفاخرة » ، والمقريزى فى « السلوك » ، والسخاوى فى « التبر المسبوك » ، وأبو المحاسن فى « النجوم الزاهرة » ، والسيوطى فى « تاريخ الخلفاء » ، والعينى فى « عقد الجمان » ، وابن اياس فى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » .

وينفرد « ابن اياس » عن غيره من مؤرخى ذلك العصر فى أنه عاش عصرين وشهد أحداث جيلين : أواخر العصر التركى المملوكى ومستهل العصر التركى العثمانى ، لذلك فان لكتاباته أهمية خاصة ، فهو يكاد يكون المؤرخ المصرى الوحيد الذى عاصر تلك الفترة الحاسمة فى تاريخ مصر ، وكان شاهد عيان لما وقع فيها من أحداث ، وتمتد هذه الفترة التى أرخ وقائعها من سنة ٨٧٢ هـ/١٤٦٨ م الى سنة ٩٢٨ هـ/١٥٢٢ م ، فضلا عن أن هذه الفترة تشكل حلقة هامة فى سلسلة تاريخ مصر فى عصر المماليك ، تلك السلسلة التى تتوالى حلقاتها فى كتاب « السلوك » للمقريزى ، و « التبر المسبوك » للسخاوى ، و « النجوم الزاهرة » لأبى المحاسن ، وتنتهى « ببدائع الزهور » لابن اياس .

تذكر المصادر التى تناولت شخصية « ابن اياس » ان اسم المؤرخ هو محمد بن أحمد بن اياس الحنفى ، وانه ينحدر من أصل تركى مملوكى يرجع الى النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، فأبوه

أحمد كان متصلا بالأمراء ورجال الدولة ، وتوفى فى شعبان من سنة ٩٠٨ هـ . وجده الأمير اياس الفخرى الظاهرى كان من مماليك الظاهر برقوق وعين بوظيفة « دوادارا » ثانيا فى دولة الناصر فرج بن برقوق، أما مولد مؤرخنا ابن اياس وكما تشير اليه هذه المصادر ، فكان فى السادس من ربيع الآخر سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٧٨ م .

ولم يؤثر عن ابن اياس أنه كان موظفا فى دولة المماليك أو تقاضى مرتبا من دواوين الحكومة أو وصل بجائزة نقدية أو عينية من حكام ذلك العصر أو كانت له صلة بقصورهم ، فقد عاش المؤرخ من موارد اقطاعه الذى ورثه عن أسرته ، تلك الموارد التى أعانته طوال حياته على التفرغ للتأليف وكتابة التاريخ ، ونظم الشعر أو سواها من الأعمال الأخرى .

ولعل هذه الظروف التى ذكرتها فضلا عن ظروف نشأته الأولى وصحبته لبعض شيوخ عصره ممن تلقى عنهم تعليمه ، كانت من العوامل التى بلورت شخصيته وجعلت منه مؤرخا يتحرى الحقيقة فيما يكتب، وفيما يصدره من أحكام على معاصريه من السلاطين والأمراء .

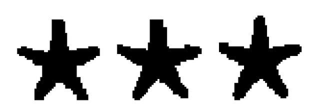
★ ★ ★

وتأتى شـهرة ابن اياس من كتابه التـاريخى الكبير المعروف بـ « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وهو بلا شك أهم مؤلفاته ، ويحتل مكانة مرموقة بين كتب التاريخ التى صنفت فى العصر المملوكى، وبخاصة الأجزاء المعاصرة ، وتزداد القيمة العلمية للكتاب عندما يصف المؤلف وقائع الفتح العثمانى لمصر والسنوات القليلة التى عاشها المؤلف فى ظل النظام السياسى الجديد ، فالجزء الأخير من كتابه بدائع الزهور كان المصدر العربى الوحيد عن تاريخ مصر فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الشرق العربى وعن تطور العلاقات بين العرب والأتراك العثمانيين .

يستهل المؤلف كتابه التاريخي هذا ـ الذي وصل فيه الى حوادث سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م ويختمه في الجزء الحادي عشر ـ بالحديث عن مصر منذ أقدم العصور ، فهو يذكر أخبار مصر وما ورد فيها من الآيات وما خصت به من المحاسن والعجائب ، وما قيل فيها ، ومن حكمها ، وما قامت عليها من الدول الى نهاية عصر الأيوبيين ، يذكر المؤلف تلك الأخبار باختصار تمهيدا للدخول في تاريخ مصر في عصر المماليك حيث يشرع المؤلف في كتابة هذه الفترة بالتفصيل .

والدارس لتاريخ ابن اياس يلحظ أن المؤلف اعتمد كثيرا من كتب التاريخ ، وخاصة حين كتب عن تاريخ مصر قبل عصر المماليك، فيذكر أنه قرأ نحوا من سبعة وثلاثين مؤلفا في ذلك ، فمن بين المؤرخين الذين قرأ لهم : المسعودى ، والطبرى ، وابن عبد الحكم ، والواقدى ، والذهبى ، والجاحظ ، والصولى ، وابن زولاق ، وابن الداية ، وابن خلكان ، وابن عساكر ، وابن الجوزى ، وابن شداد ، وابن الأثير ، والكندى ، والقضاعى ، وأبو شامة ، وابن كثير ، وأبو الفدا ، وسبط بن الجوزى ، وابن فضل الله العمرى ، وابن وصيف شاه ، وغيرهم .

أما فى القسم الذى كتب فيه عن تاريخ مصر فى عهد المماليك فيبدو أن ابن اياس قرأ لمؤرخين كثيرين ، ولعل أغلب هؤلاء كانوا أنفسهم من المماليك أو من موظفى الدولة التركية المملوكية ، أو من سواهم ، فمن بين هؤلاء : ابن واصل ، وابن الشحنة ، وابن أيبك الدوادار ، وابن الفرات ، والسيوطى ، والديار بكرى ، وابن دقماق، وبيبرس الدوادار ، وابن الطولونى ، والعينى ، وخليل بن شاهين الصفوى ، والصيرفى ، والسخاوى ، وأبو المحاسن ، وغيرهم من مؤرخى العصر .



كتب ابن اياس مؤلفه التاريخى على طريقة الحوليات ، وهى الطريقة التى كانت شـائعة بين مؤرخى ذلك العصر ، فكان يدون الحوادث شهرا بعد شهر فى الأجزاء غير المعاصرة ، ثم يوما بعد يوم فى الأجزاء الأخيرة ، ويشبه منهجه فى ذلك كثيرا منهج «ابن الجوزى» فى كتابه « المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم » فالمعروف عن كتاب المنتظم أن مؤلفه كان يدون أخباره على هيئة تقارير شهرية أو يومية حيث تتضمن أهم الوقائع السياسية ، والمراسيم التى تصـدرها الحكومة العباسية بتعيين أو عزل كبار موظفى الدولة على اختلاف ألقابهم ، فضلا عن الأخبار التى تتصل بمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كالوفيات وحفلات الزواج والأعياد وانتشار الأوبئة والمجاعات والرخاء وارتفاع الأسعار والنقود وبناء المدارس والمساجد والربط ، أو وصفه الظواهر الطبيعية كالخسـوف والكسوف وفياضانات الأنهر وظهور المذنبات وهبوب الرياح وسقوط الأمطار وغيرها من الأمور التى تتصل بحياة الأفراد أو الأرصاد الجوية •

لقد كان كتاب بدائع الزهور من هذا الطراز من المدونات ، فهو من هذه الناحية عظيم الفائدة لمن يبحث فى تاريخ مصر فى عصر المماليك والعصر العثمانى ، فى النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والادارية والثقافية ، فقد كتب عن دولة المماليك وعن السلاطين والأمراء والخلفاء الذين عاشوا فى ظلهم ، ووصف المنازعات التى كانت تقوم بين الأمراء المماليك على السلطة وما كان يصحب ذلك من اراقة للدماء ودمار للبلاد ، كذلك وصف فساد الادارة فى العصر المملوكى ، واستيلاء الجند على الممتلكات الخاصة والعامة واعتداءاتهم المتكررة على المواطنين من أفراد الشعب المصرى ، واغتصابهم لأراضى الفلاحين وتوزيعها على شكل اقطاعات على أمراء الجند وكبار موظفى الدولة •

وفيما يخص النظم الادارية والحربية التى كانت قائمة فى مصر

فى عصر المماليك يذكر ابن اياس معلومات قيمة عن طبيعة هذه النظم وعن الوظائف المدنية والعسكرية التى تتصل بالنظام السياسى المملوكى لا يمكن أن يجدها الباحث فى أى مصدر تاريخى سواه ، فمن بين الوظائف التى ذكرها المؤلف ، وكان يشغلها الاتراك الذين كانت تعج بهم دواوين الدولة : الحسبة ، الولاية ، والجمدارية ، والخاصكية ، والوزارة ، والأستادارية ، وامرة المجلس ، وامرة السلاح ، والخازندارية الكبرى ، ووكالة بيت المال ، والأتابكية ، والنظر فى الخزينة ، والنظر فى الجيش ، والنظر فى الكسوة ، والنظر فى الاصطبل ، وكتابة السر ، والزردكاشية الكبرى ، والرأس نوبة الكبرى ، وولاية الشرطة، وشادية الشرابخانة ، ورأس نوبة الثانية ، وأمير آخور ثاني ، والدوادارية ومقدم ألف ومشير مملكة ، وغيرها من الوظائف التى تحمل أسماء وألقابا فارسية وتركية ومغولية .

أما الوظائف التى ذكرها ابن اياس وكان يشغلها مصريون ، فهى الوظائف التى تتصل بالدين والشريعة منها : النظر فى الأوقاف والقضاء . وكان للمسلمين فى مصر فى عصر المماليك أربعة قضاة على أربعة مذاهب سنية ، وخطباء المساجد والأئمة وشيوخ الربط والمدارس ، وغيرها من الوظائف التى لها علاقة بأمور الأفراد الدينية .

وعن الأحوال الاقتصادية فى مصر فى عصر المماليك ، كتب ابن اياس فى كثير من يومياته عن مظاهر هذه الأحوال فأشار الى ما كانت تسببه الكوارث الطبيعية من أضرار اقتصادية ، ويحتل منسوب نهر النيل أهمية بالغة فى حوليات المؤرخ ومدى تأثيره فى أسعار المحاصيل كما أشار المؤلف الى التعامل النقدى والى أنواع المسكوكات وقيمة كل نوع منها تبعا للحالة الاقتصادية فى البلاد ، وذكر عمليات تزييف النقود واضرارها وموقف السلطة من القائمين بأمرها ، كذلك ذكر فى مواضع متعددة أنواع الضرائب التى كان يفرضها الحكام على

المواطنين ، والأساليب اللاانسانية التى كان يلجأ اليها موظفو الحكومة لاستيفائهـا •

ووصف ابن اياس الأحوال الاجتماعية فى مصر فى ذلك العصر: فكتب عن الأعياد والمواسم والحفلات الشعبية ومواكب الخلفاء والسلاطين والأمراء واستقبال سفراء الدول وما يرتبط بذلك من خلع وهدايا ورسائل •

ولم يخل تاريخ ابن اياس من الاشارة — وفى مواضع كثيرة من كتابه الكبير — الى ظواهر الطبيعة : كالجفاف وهبوب الرياح وسقوط الأمطار وانخفاض وارتفاع درجة الحرارة ، أو الى الخسوف والكسوف وغيرها من الظواهر ، أو الى ما أنشىء من محـال ومبـان .ومساجد وربط ومدارس وقباب ومدافن ، أو الاشارة الى أخبار العلماء والأدباء والشعراء والأعيان وتراجم من توفى منهم •

وبالنسبة لمصادر ابن اياس ، فهو مؤرخ صادق يستقى معلوماته عن العصر المملوكى المتأخر من أوثق المصادر ، وأكثرها صلة بالأحداث الجارية فى مصر وقتذاك ، فهو على علاقة جيدة بالكثير من رجـال الدولة وكتاب السر وخواص السلطان ، فضلا عن أن أخيه « الجمالى يوسف » كان يعد من كبار موظفى الدولة المملوكية ، اذ تولى وظيفة « زردكاش » فى القلعة ، فكان يزوده بالكثير مما يحتاج اليه من مواد رسمية أو سرية لتدوين حولياته •

وابن اياس لا يتحرج فى ذكر مساوىء حكام عصره ، فكما يذكر محاسنهم لا يجد حرجا فى تعرية تصرفاتهم ، واظهار عيوبهم وتعـداد مثالبهم ، ومثالب خواصهم من الموظفين ، وعلى الرغم من أنه كتب الجزء الأخير من كتابه فى ظل السيادة العثمانية ، وانتمائه الى العنصر التركى، فهو لا يتردد فى تسخيف الأتراك والتعبير عن احتقاره اياهم •

ولا يرقى ابن اياس من حيث اللغة والقدرة البلاغية الى مرتبة « مسكويه » وبخاصة فى تأليف المناظر الجديرة بالتصوير والمفزعة وتصوير الشخصيات التى يستطيع القارىء أن يتخيلها ، وتبقى واضحة فى ذهنه ، فأغلب تفاصيله أجف وأقل من أن تحقق هذا الغرض ، ولكن التأثير الذى يتركه بالرغم من قصوره فى هذه الناحية ، تأثير راوية أمين لحقائق مكتشفة ، ومكتشف واع يلاحظ ويدون الأمور التى تدل معرفتها على قيمتها •

وكثيرا ما استعان « ابن اياس » بأشعاره أو أشعار غيره من شعراء ذلك العصر للتعبير عن الانفعالات التى كانت تتولد فى أعماقه بسبب حالة سياسية أو اجتماعية معينة ، ومن يتصفح مؤلفه التاريخى « بدائع الزهور » يجده يطفح بالكثير من الأبيات والمقطعات الشعرية، فهو يبدو من خلال أشعاره انه عاش فردا متتبعا عن كثب حوادث المجتمع الذى تقلب فيه وليس ذلك بصفته مؤرخا معنيا بتدوين الوقائع والأخبار ، بل لأنه كان انسانا يتأثر بما حوله ، وبما كان يجرى فى دولة بدت عليها مخايل الاحتضار والزوال ، فحين توفي « نورالدين على بن رحاب » سنة ٨٩٦ هـ ، وكان ابن رحاب واحدا من أشهر المطربين المصريين عصر ذاك ، رثاه ابن اياس بقوله :

توفى نزهة الأسماع طرا   وصار العيش منا فى ذهاب
وناحت بعده الآلات حزنا   وأظهرت الصراخ مع انتحاب
وأبدى الدف والماصول زعقا   كمن جاء المآتم فى المصاب
وأضحى الناس فى قلق ولم لا   وقد ضاق الوجود بلا رحاب

كذلك هجا ابن اياس أحد رؤساء ديوان بيت المال ويعرف بـ « بركات الصالحى » ، وكان هذا الموظف المملوكى ظلوما عسوفا فى جبايته للضرائب ، من أقواله فيه بعد وفاته :

بركات زاد الظلم فى أيامه وعلى الورى قد جار فى توكيله
من أجله كان الهلاك بعاهة فمشى الى نار الجحيم برجله

وعندما غمرت المصريين موجة من الغضب والاستنكار بسبب ما فرضه السلطان قايتباى سنة ٨٩٦ هـ من ضرائب، وعزمه على جباية سبعة أشهر على ما بحوزتهم من الممتلكات ، على أن يدفع القسط الأول عن شهرين ، ويدفع القسط الثانى عن خمسة أشهر دفعة واحدة ، وصف ابن اياس هذه الحادثة نثرا وضمنها أبياتا لشاعر معاصر للتعبير عما كان يستشعره الناس من هم وألم وقلق ، قال الشاعر المعاصر فى ذلك :

عرفت شهرين عن أجرة مكانى أمس
وأصبحت مغموس فى بحر المغارم غمس

أقسم ورب الخلايق والقمر والشمس
وما طقت شهرين، كيف أقدر أطيق الخمس

هذا بالاضافة الى أشعار كثيرة نظمها ابن اياس أو اقتبسها عن شعراء معاصرين تتناول مختلف المناسبات ، وتصلح كمصدر مهم يفيد مؤرخى الأدب كما يفيد الباحثين فى تاريخ مصر فى العصر التركى المملوكى من وجوه كثيرة .

وأخيرا ، لابد من أن نشير الى اللغة التى كتب بها ابن اياس تاريخه ، والاشارة الى لغة المؤلف أمر يتصل بالحضارة ، ويكشف عن عمق المؤثرات الأجنبية ، ثم هو صورة لفعاليات شعبية أو فولوكلورية فضلا عن الفائدة التى يجنيها الباحث فى دراسة تطور اللغة وعلاقة اللهجة المصرية بالفترة الزمنية التى كتب بها ابن اياس تاريخه .

والواقع فاللغة التى كتب بها ابن اياس لغة سهلة وبسيطة أقرب الى العامية منها الى الفصحى ، وهذه اللغة كانت شائعة بين مـؤرخى العصر المملوكى ، كما أن لغة ابن اياس كانت تحفل بالكثير من الألفاظ التى لا تضمها معاجم اللغة فضلا عن وجود عدد كبير من الألفـاظ والمصطلحات الأجنبية وبخاصة الألفـاظ والمصطلحات التركية التى لاتزال اللهجة المصرية المعاصرة تضم عددا كبيرا منها .

البعثات الدبلوماسية لدولة سلاطين المماليك كما وصفها ابن إياس

للدكتور حسن أحمد محمود

أستاذ التاريخ الاسلامى
ووكيل كلية الآداب – جامعة القاهرة

ان أسلوب المؤرخ مرآة صادقة تعكس ثقافته وانفعاله بعصره ، بل يكشف عن أصالته وصدقه ، أو ضحالته وزيفه •

فالى أى حد كان مؤرخنا ابن اياس أصيلا وصادقا ؟

من هذا المنطلق نظرنا فيما نقله ابن اياس عن السفارات المتبادلة بين مصر ودول العالم الأخرى ، علنا نستطيع أن نلقى مزيدا من ضوء على شخصية المؤرخ العظيم ابن اياس •

وأول ما نلاحظــه ، ذلك الالتزام الدقيــق بالأمانة فى النقــل والرواية •

وهذا ما أسميه بالانضباط التاريخى وتحرى الخبر الى قاعه وتتبعه الى جميع تفاصيله ، وهو سعى حقيقى الى الكشف عن الحقيقة كاملة فى كثير من الأناة والصبر ، وكأنه مراسل صحفى بآلة تصوير يصور كل شىء •

فهو اذا أشار الى حضور « القصاد » أعنى الرسل ، ذكر موعد

حضورهم باليوم والشهر والسنة ، بل فى أغلب الأحيان يذكر أسماء الوافدين وألقابهم ، ويذكر وسيلة حضورهم بالبر أو البحر ، ويصف طريقهم الى القاهرة وموكبهم واستقبال السلطان لهم والحفاوة بهم ، ويصف بالتفصيل الهدايا التى يحملونها ، كما يصف خلع السلطان وهداياه وأنواعها ، وطريقة توديعهم للسفر حتى عودتهم لبلادهم ، بل يحدد المهمة التى جاء الوفد من أجلها وهل صادفت نجاحا أو اخفاقا .

وهو مثلا يتحدث عن وفد الحبشة سنة ٨١٦ هـ لتولية أحد البطاركة ، ووفد البنادقة سنة ٩١٧ هـ لفتح كنيسة القيامة أمام الإفرنج، ثم وفد أهل الأندلس لدفع الضغط عن غرناطة وفك حصارها . ووفد الشاه اسماعيل الصفوى لازالة التوتر مع سلاطين مصر . ووفد قبرص الذى جاء مستنجدا ، ووفد تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ لتبادل الأسرى ، ووفد بغداد مستنجدا من الشاه اسماعيل ، ووفد الهند الذى يطلب النجدة ضد البرتغال سنة ٩١٦ هـ الأمر الذى يدل على أن سلاطين المماليك بلغوا الغاية من الدبلوماسية .

بل يمضى ابن اياس أبعد من هذا فى تحرى الدقة ، فاذا أرسلت مصر سفارة الى بلد آخر روى ابن اياس الخبر بطريقته المعهودة فى تحديد ساعة الرحيل ووسيلته ، ويصف الأزياء والأشكال ، بل يشير أحيانا الى انطباع الناس أو انطباع البلاط . فقد وصف رسول البنادقة الى مصر سنة ٩١٧ هـ بأنه رجل شيخ بذقن بيضا وهو جسيم وعليه وقار . كما وصف رسل الشاه اسماعيل الذين حضروا الى مصر فى سنة ٩١٣ هـ ، وأن على رؤوسهم طراطير حمر ليس عليهم رونق . بل هو يقارن بين رسل ايران ورسل العثمانيين بين غلظة هؤلاء ورقة أولئك وتلطفهم ، بل تمضى به الدقة فى الوصف الى أبعد من ذلك فيسجل انطباع الناس أنفسهم . فقد عرض لرسول الشاه اسماعيل، وجماعته وأنه « فى غاية الغلاسة » .

وان دل هذا على شيء فانما يدل على أن ابن اياس كان مقـربا من بلاط السلطان وان لم يتول وظائفه ، وانه يستقى المعلومات من مصادرها الأصلية ، من ديوان الانشا أو رجال القصر أنفسهم • الأمر الذى يعطى روايته قيمة تاريخية عظيمة ويدعونا بحـق الى أن نمعن النظر فى حولية ابن اياس فاحصين مدققين •

★ ★ ★

ناحية أخرى تنعكس صورتها بعمق من رواية ابن اياس ، وهى المكانة الدولية الرفيعة التى ظلت مصر تحتلها فى العالم الاســـلامى حتى الفتح العثمانى فتتجه اليها أبصار المسلمين تطلب المشورة حينا أو النجدة حينا آخر •

يصور ابن اياس هذه المكانة من خلال روايته عن الرسل الى مصر ويصدر تعليقات قيمة جدا تدل على ثقافته الواسعة ومعرفته العميقـة بالعلاقات الدولية وباتجاهات السياسة المصرية ، رواية رجل ذواقـة لا يروى الخبر لمجرد الرواية ، انما يرويه عن علم وخبرة •

لهذا حرصت على اجراء **توزيع جغرافى** يصور دائرة العلاقات الدولية للمماليك عن طريق احصاء للسفراء الوافدين أو الصادرين •

بل اقتبست من الحولية نصا هاما جدا يصور مكانة مصر الدولية فى عصر ابن اياس فهو يقول فى أحداث سنة ٩١٧ هـ :

« ومن العجايب أنه فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا (رسولا) وكل قاصد من عند ملك •• قاصد شـاه اسماعيل الصفوى ــ قاصد ملك الكريج ــ قاصد ابن رمضان أمير التركمان ــ قاصد ابن عثمان ــ قاصد يوسف بن الصوفى ــ قاصد صاحب تونس ــ قاصد من مكة ــ قاصد الملك محمود ــ قاصد ابن درغل أمير التركمان ــ قاصد ملك الفرنج الفرانسة ــ قاصد البنادقة»

واليكم هذا التوزيع الجغرافى :

المغرب :

الحدة زوجة ملك المغرب

قبرس :

حضور جاكم بن ملك قبرس وطلب نجدة فأرسلت اليه بقيادة يونس الدوادار .

ايطاليا :

٨٨٣ هـ أرسل السلطان الخواجا محمد بن محفوظ المغربى الى ملك التليان الأفرنجى .

البندقية :

٩١٧ هـ حضر رسول ملك الأفرنج البنادقة ومعه هدية عظيمة لفتح كنيسة القيامة أمام الأفرنجى .

الأندلس :

٨٩٢ هـ سفارات من بلاد الأندلس بطلب تجريدة تعينهم على قتال الأفرنج عندما أشرفوا على أخذ غرناطة واضطر السلطان الى الكتابة الى أساقفة القدس لمراسلة صاحب أشبيلية ليكفه عن ذلك والا منع الأفرنج من الحج الى بيت المقدس .

السفارة الأفريقية :

٨٨٦ هـ رسول ملك الحبشة لتولية أحد البطاركة ومعه هدية عظيمـــة .

٧١٢ هـ وفد ملك النوبة الى مصر ومعه الهدايا .

التكرور :

حضور موسى ملك التكرور ومعه الهدايا العظيمة فى طريقه الى الحج .

البلاد الآسيوية :

سفارة أحمد بن أويس صاحب بغداد ليحذر من تيمورلنك ويفضى بأخباره ، ثم اتصال آخر بالقاهرة لابلاغها بالقضاء على أحد الخارجين وعودة الحج العراقى ٠

ثم عاودت بغداد الاتصال مرة أخرى فى سنة ٩١٣ هـ عندما استصرخ مراد خان بن يعقوب بن حسن الطويل ضد الشاه اسماعيل الصفوى ٠

العلاقات مع المغول :

٧٩٩ هـ رسول تيمورلنك باطلاقه أحد الأسرى ٠

٨٠٣ هـ تيمورلنك يطلب الصلح واطلاق سراح أحد القواد الذين أسروا فى عهد برقوق وكان تيمورلنك حريصا على الصلح ويعرض تبادل الأسرى ٠

الهنـــد :

العلاقات مع الامارات الاسلامية فى الهند علاقات متصلة من سنة ٨٧٦ هـ الى سنة ٩١٩ هـ ٠

٨٧٦ هـ رسول صاحب الهند ومعه هدية عظيمة للسلطان وطلب تقليدا من الخليفة العباسى ٠

٨٨٤ هـ سفارة أخرى من الهند ٠

٩١٦ هـ محمود شاه من ملوك الهند لارسال تجريدة الى جهات الهند بسبب عبث الفرنج هناك وشرعوا فى أخذ البلاد ٠

اليمن :

٧١٢ هـ رسول صاحب اليمن ومعه هدايا عظيمة ٠

٧٩٩ هـ رســول الملك الأشرف محمد بن الفضــل ومعه أحد تجار الكارمة ومعه هدية عظيمة ٠

ايران :

العلاقات مع الشاه اسماعيل الصفوى فى سنة ٩١٣ هـ عندما أرسل وفدا يعتذر عن الاغارة على بعض الأطراف ، ثم عاود الاتصال مرة أخرى سنة ٩١٧ هـ . وهنا يشير ابن اياس الى أن السلطان لم يكن مرتاحا لعلاقته بالشاه اسماعيل ، ويشير الى بداية العلاقات السيئة مع الشاه اسماعيل ، والى أن رسل مصر قاسوا الشدائد والمحن .

★ ★ ★

ان للمؤرخ أحيانا اهتمامات خاصة بناحية معينة تشد انتباهه ويركز عليها أضواءه كلها ويعطينا فيها المزيد من الوضوح .

وأقصد هنا العلاقات المملوكية العثمانية فقد ظل ابن اياس حريصا على التأريخ لها حتى تم الفتح .

فهو يذكر أن السفارات تبودلت منذ سنة ٧٩٥ هـ بدأت ببايزيد ابن مراد بك الذى حذر مصر من خطر تيمورلنك وبعث فى طلب طبيب حـاذق .

وظلت العلاقات ودية حتى سنة ٨٠٣ هـ .

وفى سنة ٨٥٨ أرسل ملك العثمانيين محمد بن عثمان يخبر بفتح القسطنطينية العظمى وكان الفتح فى يوم الثلاثاء العشرين من جمادى الأولى ودقت البشائر بالقلعة ونودى فى القاهرة بالزينة .

وكان العثمانيون حريصون كل الحرص على ابلاغ المماليك بأى فتح جديد يفتح عليهم .

بل طلبوا المحالفة سنة ٨٧٧ هـ ضد حسن الطويل الذى أراد الاستنجاد بالفرنج .

بل كان العثمانيون أحيانا يطلبون الشفاعة لأمير مملوكى يلجأ اليهم كما حدث سنة ٨٧٩ هـ بل يطلعنا ابن اياس على جانب آخر فى

تاريخ هذه العلاقات فيذكر فى سنة ٨٩٠ هـ بأن تقليدا من الخليفة العباسى أرسل فى هذه السنة لابن عثمان بتوليته على بلاد الروم وما يفتحه الله من البلاد الكفرية .

أول احتكاك بين العثمانيين والمماليك فى سنة ٨٩٤ هـ ساءت العلاقات ، وداود باشا وزير بنى عثمان يشير على السلطان بارسال مبعوث لمصالحة السلطان ولكنه اشترط اطلاق سراح المماليك الذين استولى عليهم ورد القلاع ، وفى سنة ٨٩٥ هـ تحولت العلاقات الى عمليات عسكرية ، الى أن توسط سنة ٨٩٦ هـ على جلبى قاضى بروسة فى الصلح بين المماليك والعثمانيين ورد مفاتيح القلاع وتبودل الأسرى.

لكن الأمر الذى يدعو الى الملاحظة حقا فى تاريخ هذه العلاقات أنه ابتداء سنة ٩٠٨ هـ والسلطنة المملوكية تسرف فى الحفاوة برسل آل عثمان حفاوة قلما قابلت بها سفراء آخرين ، وأرى فى ذلك مظهر فزع من ناحية المماليك من هذه القوة النامية التى يطرد ظهورها ، ومظهر ضعف من ناحية المماليك ومداراة هـذا الضـعف بهذا الملق الظاهر .

ولم تنقطع السفارات اما طلبا لشراء الأخشاب أو الحديد والبارود حتى ان السلطان العثمانى سنة ٩١٦ هـ رفض أخذ ثمن البضاعة وأرسلها هدية لمصر . وفى سنة ٩٢٠ هـ السلطان سليم يراسل سلطان مصرويشير الى قرب محاربة شاه اسماعيل الصفوى ، ويطلب محالفة ضده ، ثم يبلغ السلطان خبر انتصاره على الشاه اسماعيل . والانطباع الذى نخرج به من حولية ابن اياس أن التحول من الصداقة الى العداوة ومن الحلف الى الفتح كان تحولا مفاجئا وليست له جذور قديمة . ولنبحث عن جذوره فى أحوال نواب المماليك ببلاد الشـاه وصراعاتهم على السلطة .

مكانة ابن إياس بين مؤرخي مصر في العصور الوسطى

للدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الاسلامى
ورئيسة قسم التاريخ ـ كلية البنات
جامعة عين شمس

مكانة ابن اياس بين
مؤرخى مصر فى العصور الوسطى

حين قدم العرب الى مصر فى بداية القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) فاتحين محررين لها من الروم ، بدأت مصر تفتح عينيها على العروبة والاسلام وأخذت تندمج فى مجموعة الشعوب العربية الاسلامية •

وأنجبت مصر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى، وأوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، رجال أدب ودين ومؤرخين أنتجوا بالعربية كما لو كانوا أبناءها ، وكان علماء مصر أساتذة لعلماء افريقية والأندلس بوجه خاص •

والمعروف ان المسلمين أقبلوا على كتابة تاريخهم اقبالا شديدا وكان للمؤلفات التاريخية نسبة مرتفعة من تراث الشعوب العربية الاسلامية • وقدم التاريخ الاسلامى أكبر ما يمكن من نتائج العلوم والفنون وسائر المعرفة كما ساعد على شدة التمسك بالتراث الحضارى للاسلام ، وعلى ابقاء التراث القومى لمختلف الشعوب العربية الاسلامية حيا لا يستطيع الزمن مهما طال أن يبعد بين ماضى الأمة العربية الاسلامية وبين حاضرها •

وكان للدين الاسلامى أثر كبير فى نشأة علم التاريخ عند العرب وتطوره ، حتى فاق المسلمون فى هذا العلم غيرهم من الأمم . فالقرآن الكريم نبه الناس الى التاريخ الماضى والى تاريخ الأنبياء والرسل . كذلك كان علم التاريخ عند المسلمين يهدف فى البداية الى دراسة سيرة النبى (ص) وأعمال الصحابة والجماعة الاسلامية الناشئة وأخبار الغزوات والجهاد . وكانت معرفة التاريخ فى الاسلام هى سمة الثقافة العامة سواء بين أصحاب النفوذ السياسى أو العلماء أو النشء أو العامة.

وأنتجت مصر انتاجا وفيرا فى الثقافة الأدبية الاسلامية فى العصور الوسطى . وكان انتاج المصريين فى الدراسات التاريخية وفيرا لم تضارعهم فيه أية أمة أخرى من أمم الدولة العربية الاسلامية . وكتب المؤرخون المصريون فى التاريخ السياسى وفى التراجم وفى الخطط والآثار . وحسبنا لنعرف، ازدهار المدرسة المصرية فى التاريخ فى العصور الوسطى أن تذكر : ابن عبد الحكم ، وابن الداية ، والكندى، وابن زولاق ، وابن أبى أصيبعة وابن الراهب القبطى ، والعماد الأصفهانى ، وأبا شامة ، وابن واصل ، والقفطى ، وابن خلكان ، وابن شداد ، والذهبى ، والمقريزى ، وأبا المحاسن بن تغرى بردى ، وأبا الفدا ، والسخاوى ، وابن اياس .

أما أبو البركات محمد بن أحمد بن اياس المصرى الحنفى فقد ولد فى القاهرة فى ٦ ربيع الآخر سنة ٨٥٢ هـ / ٨ يونية ١٤٤٨ م ، أى بعد وفاة المقريزى عمدة مؤرخى مصر الاسلامية بحوالى سبع سنوات ، وقبل وفاة أبى المحاسن بن تغرى بردى بحوالى اثنين وعشرين عاما .

أما وفاة ابن اياس فكانت بعد فتح العثمانيين لمصر بأكثر من ست سنوات أى فى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م .

ولكى تتضح مكانة ابن اياس بين مؤرخى مصر فى العصور

الوسطى يجدر بنا أن نذكر أن الدراسات التاريخية فى مصر فى العصور الوسطى بلغت قمة ازدهارها فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى/الرابع عشر والخامس عشر الميلادى • ولعل هذا الازدهار يرجع الى استقرار مصر سياسيا واقتصاديا مما أدى الى تقدمها فى كافة الميادين الحضارية والى زعامتها للعالم الاسلامى حينذاك • وقد لاحظ أحد المؤرخين قبل ذلك ببضعة قرون ان بغداد لم يعد بها مؤرخون بعد ابن الصابى ، أى بعد القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، وفى ذلك يقول ابن الجوزى (١) : « فانه لما كان البلد مملوءا بالأخيار وأهل المناقب قيض الله لها من يحكيها ، فلما عدموا وبقى المؤذى والذميم الفعل ، أعدم المؤرخ وكان هذا ستر عورة • »

أما مصر زعيمة العالم الاسلامى آنذاك ومقر الخلافة فقد كانت أرضا صالحة للمؤرخين يجمعون ويدونون • وكان يحكم مصر أمراء وسلاطين أقوياء وعظماء يقدرون الدراسات التاريخية ويقدرون عظمة الماضى ، وتسابق الحكام والأمراء وذوو الجاه والثراء فى وقف الأراضى والعمائر على العلماء وطلاب العلم لكى يتوفروا على دراستهم آمنين مطمئنين • ويشهد بذلك المئات بل الآلاف من وثائق الوقف التى لاتزال محفوظة فى دور الأرشيف فى وزارة الأوقاف وفى المحاكم والكنائس •• والتى بدأت تخرج الى النور على يد بعض المؤرخين المحدثين •

واذا استعرضنا ديار الاسلام بوجه عام ، ومصر بوجه خاص ، لا نجد بين العدد الضخم من المؤلفين المسلمين الا عددا قليلا من المؤلفين الذين اقتصر كل نشاطهم العلمى أوجله على ميدان الدراسات التاريخية• وكان الغالبية العظمى من مؤرخى مصر فى العصور الوسطى علماء فى

---

(١) المنتظم جـ ٢ ص ٤٢ (حيدر اباد ١٣٥٧ ـ ١٣٥٨ هـ) وانظر أيضا : روزنتال : علم التاريخ عند المسلمين ص ٥٩ (ترجمة الدكتور صالح أحمد العلى ـ بغداد ١٩٦٣ بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر) •

اللغة والفقه وسائر الدراسات الدينية كما كانوا أصحاب مناصب أو وظائف حكومية فمنهم من تولى وظائف تدريس الحديث أو اللغة أو سائر الدراسات الدينية ومنهم من تولى الافتاء ومنهم من تولى منصب القضاء أو الحسبة ومنهم من عمل فى ديوان الانشاء الخ ..

وكان فى مصر عدد غير قليل من الفقهاء الذين امتازوا بالدقة والعمق وسعة الأفق والذين أدركوا أهمية الدراسات التاريخية للدراسات الدينية والفقهية ، وأصبح بعضهم مثل ابن حجر العسقلانى مؤرخين بارزين .

وذكر السخاوى (١) : « وقد وجد بعض العلماء كأبى شامة أن من الضرورى الدفاع عن اشتغالهم بالتاريخ بالاستشهاد بالشافعى الذى قال عنه مصعب الزبيرى : ما رأيت أحدا أعلم بأيام الناس من الشافعى ، ويروى عنه أنه أقام على تعلم أيام الناس والأدب عشرين سنة ، وقال ما أردت بذلك الا الاستعانة على الفقه » .

وفى هذا الجو العلمى المزدهر ، وقبيل النكبة التى حلت بمصر على يد الأتراك العثمانيين ظهر مؤرخنا ابن اياس الذى لحق بأواخر المؤرخين العظماء فى مصر فى العصور الوسطى ، والذى يعتبر آخر مؤرخ عظيم أرخ لمصر ، وذلك فى القرن التاسع الهجرى / ١٥ م وأوائل العاشر الهجرى / ١٦ م . ولم ينقطع ابن اياس عن الدراسات التاريخية ولا عن التأريخ لمصر الا قبيل وفاته ، اذ كان آخر تاريخ كتبه بخط يده هو يوم الأربعاء سلخ ذى الحجة الحرام سنة ٩٢٨ هـ وهو تاريخ الانتهاء من الجزء الحادى عشر من كتابه بدائع الزهور (مخطوط فاتح فى استانبول رقم ٤١٩٩) .

---

(١) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ص ٤٥ (دمشق ١٣٤٩ هـ/١٩٣٠ ـ ١٩٣١ م)
وانظر أيضا : أبو شامة : الروضتين صفحة ٥ (طبعة
Recueil des Hist. des Croisades, Hist. Or. 4.
وروزنثال : علم التاريخ عند المسلمين ص ٦٠ .

وذكر ابن اياس أنه كتب الجزء الثانى عشر من كتـاب بدائع الزهور . ولكن لم يعثر على هذا الجزء للآن (١) .

وكان ابن اياس من بين هؤلاء القلة من المؤرخين الذين اقتصر نشاطهم العلمى على الدراسات التاريخية . كذلك كان ابن اياس من بين القلة من المؤرخين الذين لم يتقلدوا مناصب حكومية مثله فى ذلك مثل أبى المحاسن بن تغرى بردى ، ومثل عبد الباسط بن خليل الحنفى الذى عاصر ابن اياس .

وكان ابن اياس من أسرة مملوكية معروفة منذ النصف الأول من القرن الثامن الهجرى ، فكان جده لأمه من مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

وعملت الأسرة فى خدمة سـلاطين مصر وكانت تتمتع بالنفوذ والثراء . وكان جد ابن اياس وهو الأمير اياس الفخرى الظاهرى من مماليك السلطان الظاهر برقوق أول مماليك دولة الجراكسة .

أما والد المؤرخ وهو شهاب الدين أحمد بن اياس فيذكر المؤرخ عنه أنه كان من مشاهير « أولاد الناس » وكان ذا صلات بالأمراء وأرباب الدولة وكانت وفاته فى ١٣ من شعبان سنة ٩٠٨ هـ (١٠ من فبراير ١٥٠٣ م) .

وكان ابن اياس المؤرخ من « أولاد الناس » أى أنه كان من الطبقة التى تضم أبناء الأمراء من المماليك والذين كان يعطى لهم اقطاع مناسب رعاية لأسلافهم . ولهذا نرى المؤرخ ابن اياس يعيش معظم حياته عيشة راضية ساعدته على الكتابة فى التاريخ الذى ولع به وأحب دراسته .

---

(١) الدكتور محمد مصطفى : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور . ص ١٦ (دار المعارف بمصر ١٩٥١ م) .

ولم يكدر صفو حياة ابن اياس الا حين أخذ السلطان الغورى ينعم باقطاعات أولاد الناس على جنــده ومماليكه فى جمادى الآخرة سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م وخرج اقطاع ابن اياس لأربعة من المماليك ، وحزن ابن اياس لفقد اقطاعه لكنه استطاع أن يستعيد اقطاعه فى السنة التالية بعد أن أبلغ ظلامته للسلطان .

واشتهر ابن اياس بكتابه فى تاريخ مصر المعروف باسم « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، كما أن له كتبا أخرى مثل « نشــق الأزهار فى عجائب الأمصار » وهو كتاب فى الفلك وتركيب الكون وآثار مصر الفرعونية وملوكها ، وذكر ابن اياس أنه جمع فيه أغرب ما سمع وأعجب ما رأى ولا سيما عجائب مصر القديمة وأعمالها . وهذا الكتاب استخدمه علماء أوربا فى القرن التاسع عشر ، وقد طبع جزءا منه الأستاذ لانجلس Langlés فى باريس سنة ١٨٠٧ م . ولابن اياس أيضا كتاب مختصر لتاريخ مصر وهو مستقل عن كتابه بدائع الزهور واسمه « عقود الجمان فى وقايع الأزمان » .

ومن مؤلفات ابن اياس كتاب « مرج الزهور فى وقائع الدهور » وهو كتاب قصص للأنبياء والرسل . ولابن اياس كتاب صغير فى تاريخ العالم اسمه « نزهة الأمم فى العجائب والحكم » . وليست هذه هى كل مؤلفات ابن اياس فى التــاريخ لكن مكانة ابن اياس التاريخية تستند بالدرجة الأولى على كتابه « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، اذ رفعه هذا الكتاب الى الزعامة بين مؤرخى عصره : فكما كان المقريزى عمدة المؤرخين فى النصف الأول من القرن ٩ هـ / ١٥ م وأبو المحاسن بن تغرى بردى شيخ المؤرخين بعد المقريزى فى النصف الثانى من القرن ٩ هـ / ١٥ م ، أصبح لابن اياس المكان الأول بين المؤرخين المصريين فى أواخر القرن التاسع الهجرى وأوائل العاشر الهجرى / أواخر ١٥ م وأوائل ١٦ م .

ولكى ندرك أهمية كتاب بدائع الزهور ومكانة ابن اياس ، نكرر ما ذكرناه من تقدم وازدهار الدراسات التاريخية فى مصر فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى / ١٤ و ١٥ م •

وكان نتيجة لازدهار علم التاريخ فى مصر أن ظهرت فى القرن التاسع الهجرى / ١٥ م الدراسات التى كتبت فى علم التاريخ والتى تم بها كل من محيى الدين محمد بن سليمان الكافيجى الذى ألف كتابه « المختصر ، فى علم التاريخ » وذلك فى القاهرة سنة ٨٦٧ هـ / ١٤٦٣ م ، والسخاوى المصرى الذى أتم كتابه « الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » فى مكة سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢ م •

واتصفت كتابة التاريخ فى مصر فى عصر ابن اياس وقبله بجمع وتلخيص ما أنجزه المؤرخون السابقون ثم كتابة ما تلا ذلك من الأحداث التاريخية • فأرخ المقريزى لتاريخ المماليك فى كتابه « السلوك لمعرفة دول الملوك » ثم استكمل أبو المحاسن بن تغرى بردى كتاب المقريزى وذلك فى كتابيه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقـــاهرة » و « حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور » • وكتب السخاوى أيضا ذيلا لكتاب السلوك للمقريزى فى كتابه « التبر المســبوك فى ذيل الســلوك » •

ثم تنتهى حلقات تاريخ مصر فى عصر المماليك بكتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » لابن اياس •

أما كتاب بدائع الزهور لابن اياس فهو يشتمل على تاريخ مصر منذ أقدم العصور الى أوائل الحكم العثمانى أى الى سنة ٩٢٨ هـ • وتنحصر أهمية هذا الكتاب فى أنه الكتاب الرئيسى والأساسى الذى نعرف منه تاريخ مصر فى أواخر عصر المماليك وفى بداية حكم العثمانيين لمصر فضلا عن حوادث الفتح العثمانى لمصر •

وقد طبع هذا الكتاب فى القاهرة عام ١٣٠١ ــ ١٣٠٦ هـ /

١٨٨٣ ــ ١٨٨٨ م ، وطبع بالمطبعة الأميرية ببولاق بالقاهرة عام ١٣١١ ــ ١٣١٢ هـ / ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤ م •

واهتم بابن اياس ودراساته التاريخية نفر من المستشرقين ومن المؤرخين المصريين المحدثين أمثال بروكلمان Brockelmann وفولرز Vollers ، وسوبرنهايم Sobernheim ، وكاله Kahle ، ومارجليوث ، والدكتور محمد مصطفى المدير السابق لمتحف الفن الاسلامى بالقاهرة (دار الآثار العربية بالقاهرة سابقا) ، والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة أستاذ تاريخ العصور الوسطى السابق بالقاهرة ، والأستاذ محمد عبد الله عنان •

أما المستشرق الفرنسى الأستاذ جاستون فيت G. Wiet الذى عمل عدة سنوات مديرا لدار الآثار العربية بالقاهرة فقد ساهم أيضا فى الاهتمام بابن اياس وذلك بأن نشر ترجمة فرنسية لتاريخ بدائع الزهور من سنة ٨٧٢ هـ الى سنة ٩٠٦ هـ وذلك فى القاهرة سنة ١٩٤٥ م ضمن مطبوعات المعهد الفرنسى للعاديات الشرقية • كذلك أدى اهتمام مدام ديفونشاير Mme Devonshire بالآثار فى عصر المماليك الى أنها قامت بترجمة السنوات ٨٢٥ هـ الى ٨٤١ هـ لحكم السلطان برسباى من كتاب بدائع الزهور لابن اياس الى اللغة الفرنسية وذلك فى مجلة المعهد العلمى الفرنسى رقم ٢٥ من صفحة ١١٣ الى ١٤٥ •

وقد اشتغل الدكتور محمد مصطفى من سنة ١٩٢٨ م الى سنة ١٩٣٥ م بنشر الأجزاء : الثالث والرابع والخامس من كتاب بدائع الزهور مع الأستاذ الألمانى باول كاله ، وهذه الأجزاء شملت تاريخ مصر من سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م الى سنة ٩٢٨ هـ / ١٥٢٢ م باعتبار أن ابن اياس كان المؤرخ الوحيد تقريبا الذى كتب عن هذه الفترة من تاريخ مصر ، ولأن شهر رجب سنة ٨٧٢ هـ هو الشهر الذى تولى السلطان الأشرف قايتباى الحكم فيه ، وهو التاريخ الذى ينتهى عنده

كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن • واعتمد الدكتور محمد مصطفى والأستاذ كاله على مخطوط جامع الفاتح باستانبول الذى كتبه ابن اياس بخطه • ثم عاد الدكتور محمد مصطفى فنشر فى سنة ١٩٥١ م بين مطبوعات الجمعية التاريخية المصرية كتابا بعنوان « صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ، وفى هذا الكتاب نشر الدكتور محمد مصطفى الفترة من شهر ربيع الأول سنة ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م الى شهر رجب سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٨ م معتمدا على مخطوط فاتح باستانبول رقم ٤١٩٨ •

وذكر الدكتور محمد مصطفى أن الذى دعاه لنشر هذه السنوات من تاريخ ابن اياس أنه لاحظ بعد أن قارن هـذه الفترة بما أورده أبو المحاسـن فى كتابيه النجوم الزاهرة ، وحـوادث الدهور ، ان أبا المحاسن لم يستنفذ الحوادث فى بعض الشهور ، كما أنه لم يكتب عن كل الحوادث التى ذكرها ابن اياس فى هذه الفترة • وفضلا عن ذلك فان النسخة التى اعتمد عليها الدكتور محمد مصطفى هى نسخة بخط المؤلف وهى أوفى وأكمل من نسخة المطبعة الأميرية ببولاق فى القاهرة وان نسخة بولاق اختصر فيها المتن الى حد أنه صار بعيدا جدا عن متن الأصل الذى كتبه ابن اياس بخطه ، فمثلا نشرت السنوات من ٨٦٣ هـ الى ٨٧١ هـ فى كتاب الدكتور محمد مصطفى من صفحة ٦٠ الى ١٧٧ أى فى ١١٨ صفحة بينما احتلت هذه السنوات فى طبعة بولاق ١٨ صفحة فقط أى من صفحة ٦٣ الى ٨٠ •

وقد أورد الدكتور محمد مصطفى فى كتابه « صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور » بيانا لنسخ بدائع الزهور فى وقائع الدهور » التى كتبت بخط المؤلف ، وتلك التى نسخت طبق الأصل للمخطوطات التى كتبت بخط ابن اياس ، وكذلك بيانا بالنسخ المختصرة لكتاب بدائع الزهور ، وأرقام تلك النسخ المختلفة فى مكتبة جامع الفاتح باستانبول ، والمكتبة الأهلية فى باريس ، وفى فينا ، وفى

لينينجراد ، وفى لندن فى المتحف البريطانى ، وفى كمبردج ، وفى ليدن، وفى مكتبة الفاتيكان فى روما ، وفى المكتبات الخاصة فى استانبول وفى القاهرة ، وفى دار الكتب المصرية فى القاهرة ، وفى مكتبة بانكيبور بالهند (١) .

والحق ان كتاب بدائع الزهور لابن اياس ، فضلا عن مؤلفاته التاريخية الأخرى ، يدل على أنه كان مجدا ومجتهدا فى الدراسة والكتابة وانه لم ينقطع عن الكتابة والتأليف الا قبيل وفاته . ولم يكن ابن اياس المؤرخ الوحيد فى عصره ، بل عاصره مؤرخون لهم كتبهم فى التاريخ ، ولهم قيمتهم وشهرتهم العلمية مثل : السيوطى ، عبد الباسط بن خليل الحنفى ، وحسن بن حسين الطولونى ، وأحمد ابن زنبل الرمال ، ومحمد بن طولون الدمشقى ، لكن لم يستطع واحد من هؤلاء أن يقرب مكانة ابن اياس فى الدراسات التاريخية أو فى المقدرة على التأليف الضخم فى التاريخ ، فقد اشتغل معاصروه بالتاريخ وغيره من العلوم والفنون لكن ابن اياس اقتصر على الدراسات التاريخية وما يتعلق بتلك الدراسات . ولم يكتف ابن اياس بسرد الحوادث كما فعل معظم المؤرخين فى العصور الوسطى ، فالتاريخ كما يقول المسعودى (٢) عند وصفه كتابه مروج الذهب « وكتابنا هذا كتاب خبر لا كتاب بحث ونظر » .

لكننا نرى ابن اياس فى كتابه يحاول أن يقف بين الرواية والأخرى للشرح والنقد . وقد أتبع المؤرخون المسلمون فى العصور الوسطى فى الغالب كتابة التاريخ بطريقة الحوليات أى حسب السنين الهجرية ، وفى مصر أصبح المؤرخون فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى يكتبون لا وفق السنين فقط بل حسب الأشهر ، الأمر الذى لم يكن معروفا أو مألوفا عند كتاب الحوليات الأوائل . ونرى ابن اياس يدون

---

(١) انظر : الدكتور محمد مصطفى : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٢٣-٣١ .
(٢) مروج الذهب جـ ١ ص ٤٦ (القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

الحوادث شهرا بعد شهر فى الأجزاء غير المعاصرة من كتابه ثم يوما بعد يوم فى الأجزاء الأخيرة منه مما يشهد بدقة ابن اياس وبرغبته فى استقصاء الحقائق .

والحق أنه مما رفع ابن اياس الى المرتبة الأولى بين مؤرخى عصره أنه كان يحاول الوصول الى الحقيقة التاريخية مستندا على الأصول والمصادر التى تجعل دراسته وكتابته فى التاريخ دقيقة وسليمة ومبنية على أسس صحيحة . أما فى الأجزاء غير المعاصرة من كتابه فانه يقول : « وقد طالعت على هذا التاريخ كتبا شتى نحو سبعة وثلاثين تاريخا حتى استقام لى ما أريد » (١) . وذكر ابن اياس الكثير ممن نقل عنهم من المؤرخين مثل : ابن عبد الحكم ، والكندى ، وابن وصيف شاه ، والقضاعى ، وأبى شامة ، والمسعودى ، والذهبى ، والواقدى ، والصولى ، وابن زولاق ، وابن الداية ، والجاحظ ، وابن خلكان ، وابن عساكر ، والمسبحى ، وابن الأثير ، وابن الجوزى ، والثعالبى . كذلك ذكر ابن اياس الكثير من المؤرخين الذين اعتمد عليهم من الجيل السابق لعصره مثل : المقريزى ، وابن حجر العسقلانى ، وابن فضل الله العمرى ، وغيرهم . كذلك ذكر ابن اياس فى تاريخه الكثيرين من الكتاب والعلماء والأدباء والمؤرخين الذين عرفهم وترجم لهم فى كتابه بدائع الزهور مثل : خليل بن شاهين ، والعينى ، وأبى المحاسن ، وابن الصيرفى ، والسخاوى ، وابن الطولونى . كذلك ذكر من أساتذته وشيوخه : جلال الدين السيوطى ، وعبد الباسط بن خليل ، واستشهد بأقوالهما وأشعارهما وذكرهما بالتقدير والاحترام والعرفان بالجميل . وكان ابن اياس يستقى الأخبار والحوادث المعاصرة له من مصادرها الرئيسية فكان يدون ما يراه أو يسمعه أو يشعر ويحس به . . وكان ابن اياس على صلة حسنة بالكثيرين من خواص السلطان وكتاب السر

(١) انظر الدكتور محمد مصطفى : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ص ٢٠ .

وأعيان الدولة ، بل ان أخاه الجمالي يوسف كان زردكاشا بالقلعة (أى كان يعمل فى السلاح خاناه أى فى صنع السلاح واصلاحه وتجديده) .

ونلاحظ أن ابن اياس أدرك مثل معظم المؤرخين الذين كانوا يكتبون عن العصر الذى يعيشون فيه أهمية الأخبار المستقاة من المصادر الرئيسية . وقد تتبع ابن اياس حوادث مصر والقاهرة وكتب عنها حسب مشاهداته واحساساته وما يصله من معلومات .

وقلما نجد مؤرخا فى العصر الاسلامى لا ينظم الشعر أو لايستعين به فى مناسبات مختلفة سواء أكان هذا الشعر جيدا أم رديئا ، ونجد ابن اياس ينظم الشعر فى مناسبات مختلفة كما يورد أشعار غيره .

ومن أبرز ما نظمه ابن اياس فى بدائع الزهور ، الأبيات التى تتعلق بضرائب المشاهرة والتى ألغاها السلطان الغورى فى أواخر أيامه، ومرثيته لمصر التى قالها بمناسبة فتح العثمانيين لها . كذلك أورد قصيدة زجلية طويلة نظمها أحد الزجالين المصريين فى رثاء الملك الأشرف قانصوه الغورى .

والحق ان كتاب بدائع الزهور يعتبر سجلا وافيا لتاريخ مصر وخاصة فى الفترة الأخيرة من تاريخ مصر فى العصور الوسطى ، فكتب ابن اياس عن سلاطين المماليك وأمرائهم وعن الخلفاء العباسيين فى القاهرة ، كما كتب عن النظم الادارية والحربية ، وعن الحالة الاقتصادية فى البلاد ، وعن العلاقات الخارجية ، كما اهتم بذكر مقاييس النيل والفيضان والتحاريق ، واهتم بالظواهر الفلكية . كذلك اهتم ابن اياس بالكتابة عن الفنون والعمارة ، وعن أخبار العلماء والأدباء والشعراء والأعيان ، ولم يترك ابن اياس ميدانا الا حاول دراسته واستنفاد الكتابة عنه .

وتميز ابن اياس فضلا عن ذلك بالقدرة على النقد والجرأة فيه ، وكثيرا ما ندد باهمال المدفعية وفساد الادارة المالية على عصره وكان يحس انهما السبب فى اضمحلال الدولة المملوكية • وكان ابن اياس جريئا فى نقده للحاكم العثمانى فى مصر الذى أهمل مصلحة مصر والمصريين ، ولم يعبأ فى نقده بقوة وهيبة السيادة العثمانية فى مصر •

وليس من شك فى أن قدرة ابن اياس وتمكنه فى علم التاريخ ، ونقده الحر الجرىء وعدم اسفافه فى حكمه على الناس ، واعتداده برأيه ، واعتماده على المصادر الأصيلة فى دراساته التاريخية ، ليس من شك فى أن ذلك كله رفع مكانة ابن اياس بين المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى •

أما أسلوب ابن اياس فقد انتقده بعض الباحثين المحدثين لوجود كثير من الألفاظ العامية فيه • ولكن بعد دراستنا للنسخ المختلفة لكتاب بدائع الزهور لاحظنا أن النسخة المختصرة للكتاب كتبت باللهجة المصرية الدارجة ، أما النسخ المطولة التى كتبت بخط المؤلف ، أو طبق الأصل منها فهى بأسلوب مصقول جيد وأن كانت مليئة بكثير من الألفاظ والأساليب غير العربية وذلك لانتشار اللسان التركى فى مصر بين طبقات الخاصة فى العصر المملوكى ، فضلا عن وجود كثير من الألفاظ غير العربية فى لغة المصريين حتى بعد تعريب مصر ، وذلك لوقوع مصر فى مفترق الطرق ، ولوفود كثير من سكان البلاد المختلفة اليها ، هذا بالاضافة الى البقية الباقية من بعض الألفاظ المصرية القديمة التى عاشت بين المصريين • بل ان العرب أنفسهم بعد فتحهم لمصر استخدموا كثيرا من الألفاظ والكلمات التى وجدوها فى مصر وخاصة تلك التى تتعلق بالادارة والمالية والتى لا توجد فى معاجم اللغة العربية الآن •

وكانت لغة ابن اياس وأسلوبه فى الكتابة لا تختلف كثيرا عن

لغة وأسلوب سائر مؤرخي مصر في العصور الوسطى ، وان كانت صورة للغة والكتابة في مصر في عصر ابن اياس • وأسلوب ابن اياس في وصفه لفتح مصر على يد العثمانيين أسلوب سلس بديع • ولذلك وصف مارجليوث في كتابه ، محاضرات حول المؤرخين العرب، أسلوب ابن اياس بقوله : « ان أسلوبه في الكتابة والتأليف ، ونمطه في التفكير، ينم كل منهما عن فردية واستقلال في الرأى قل أن يقربه فيه معظم المؤرخين » (١) •

رحم الله ابن اياس الذى كرس حيــاته للدراســات التاريخية وللتأريخ لمصر ، وكان آخر المؤرخين العظماء في مصر في العصــور الوسطى •

(١) Margoliouth : Lectures on Arabic Historians, p. 159.
والدكتور محمد مصطفى زياده : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميـــلادى (القرن التاسع الهجرى) (القاهرة ١٩٤٩) ص ٥٤ •

التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك

(٨٧٢ - ٩٢٣هـ = ١٤٦٨ - ١٥١٧م)

في ضوء كتابات ابن إياس

للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور

أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

التدهور الاقتصادى فى دولة
سلاطين المماليك فى
ضوء كتابات ابن اياس

مهما تعدد الأسباب التى يفسر بها المؤرخون ظاهرة اضمحلال الدول وسقوطها ، فان العامل الاقتصادى ظل دائما أبدا يبدو فى صورة الدعامة الكبرى التى تستند اليها أية دولة فى قيامها وبقائها ، فاذا تطرق الضعف الى هذه الدعامة جاء ذلك نذيرا بتداعى الدولة وانهيارها .

والمتأمل فى تاريخ دولة سلاطين المماليك أيام عنفوانها وقوتها يجدها تتمتع باقتصاد قوى متين ، يستند الى تجارة نشطة فى الخارج ، وحالة من الأمن والاستقرار فى الداخل ، وقوة ضاربة يحترمها الأصدقاء ويخافها الأعداء ، ونظام مماليكى يعترف فيه المملوك بفضل أستاذه ، ويحترم فيه الصغير من أهو أكبر منه سنا ودرجة .. وهكذا حققت دولة سلاطين المماليك توازنا يدعو الى الاعجاب فى سياستها الداخلية جعلتها موضع احترام جيرانها فى الخارج . وهذا التوازن فى نظام المماليك وسياسة دولتهم استند أولا ــ وقبل أى اعتبار آخر ــ الى اقتصاد مستقر متين ، له من أسباب القوة ما يكفل حفظ النظام وبقائه .

على أن دولة واحدة فى التاريخ لم يقدر لها البقاء على حال واحدة من العزة والرفعة ، وانما تخضع الدول لسنة الطبيعة ما بين نشأة تحبو فيها ، وشباب يتم فيه نضجها حيث تتجمع لها أسباب القوة والعظمة ثم الانتقال تدريجيا الى مرحلة الشيخوخة وفيها تستحيل قوة الدولة ضعفا وتدب فى جسدها الأمراض التى تمهد لسقوطها • وفى هذا البحث تتتبع فى كتابات ابن اياس مظاهر التدهور فى سلطنة المماليك فى الخمسين سنة الأخيرة من عمرها ، معتمدين على ما جاء فى تلك الكتابات من اشارات الى الأسباب الاقتصادية لهذا التدهور ، والأسلوب الذى حاول به سلاطين المماليك علاج الموقف • وهنا يصح أن نشير الى أن هناك عدة اعتبارات أملت علينا اختيار هذه الفترة بالذات التى تحتل الأجزاء الثلاثة الأخيرة من آخر طبعات كتاب بدائع الزهور • فمن هذه الاعتبارات أن تلك الفترة تبدأ باعتلاء السلطان قايتباى دست سلطنة المماليك سنة ٨٧٢ هـ • وفى عهد قايتباى بالذات ظهرت فى وضوح جميع مظاهر التدهور الاقتصادى الذى شكت منه سلطنة المماليك ، فى خريف عمرها ، كما اتضحت كافة الوسائل التى تحايلت بها السلطنة للحصول على المال واشباع خزائنهم للمحافظة على بقائهم •

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فان كتابات ابن اياس تبدو أكثر أهمية عندما يعالج هذه الخمسين سنة الأخيرة من عمر سلطنة المماليك • ذلك أنه يقول عن نفسه : انه ولد فى سادس ربيع الآخر سنة ٨٥٢ هـ ، ومعنى ذلك أنه كان عندما اعتلى السلطان قايتباى دست السلطنة سنة ٨٧٢ هـ رجلا راشدا يناهز العشرين من عمره ، فهو عندما يكتب عن هذه الفترة انما يدون ما شاهده بعينيه وما سمعه بأذنيه ، بخلاف الفترة السابقة التى أرخ لها ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور والتى اعتمد فيها على النقل والرواية ، أو ربما دون أحداثها على غير وعى كاف بسبب حداثة سنه وعدم نضجه •

والواقع أن المتعمق فى دراسة ما كتبه ابن اياس يجده يضع يده

ـ عن طريق مباشر أو غير مباشر ـ على مظاهر التدهور العام الذى تعرضت له دولة المماليك فى الخمسين سنة الأخيرة من عمرها ، وعلاقة هذا التدهور بالعامل الاقتصادى • فنظام المماليك الذى بدأ محكما يقوم على أساس طاعة المملوك العمياء لأستاذه وسلطانه ، والقناعة التامة بما يخصص له من جامكية أو نفقة أو اقطاع ••• هذا النظام تداعى فى أواخر عصر سلاطين المماليك ، بحيث غدا المماليك الجلبان أداة للعبث والعدوان على أهالى البلاد الآمنين ، ونهب أموالهم وممتلكاتهم، والثورة بين حين وآخر على السلطان بدعوى عدم الرضا عما يخصصه لهم من نفقة وأموال ، مطالبين بالمزيد • من ذلك ما يذكره ابن اياس فى حوادث سنة ٨٩١ هـ من أن المماليك صاروا « يقفون للأمراء بسلم المدرج ويقولون لهم: قولوا للسلطان ينفق علينا والا يقع منا فتنة كبيرة، وصاروا يغلظون عليهم فى القول » • ويتبع ابن اياس ذلك ببيان أثر هذه القلاقل فى الحياة الاقتصادية فيشرح كيف « اضطربت الأحوال ووزع أكثر الأمراء والناس حوائجهم فى الحواصل ، وغلقت الأسواق والدكاكين •• »

ويعود ابن اياس فيحكى كيف ثار المماليك سنة ٨٩٨ هـ فاضطربت الأحوال « واستمرت الدكاكين مغلوقة وكذلك الأســواق ، والناس يرتقبون وقوع فتنة كبيرة •• »

ولم تسلم فئة من فئات المجتمع فى ذلك الدور من أذى المماليك وفسادهم، فيروى ابن اياس فى حوادث سنة ٩٠٤ هـ ، « أنهم رجموا الأمراء من الطبــاق بالحجارة وكبوا عليهم المــاء المتنجس بالأقذار ، وخطفوا عمائم الفقهاء •• » وقد بلغ من ضعف السلطان أمام المماليك انه كان يحضر المصحف العثمانى بين يديه ليحلف العسكر والأمراء بأنهم « لا يخونونه ولا يغدرونه ولا يركبون عليه » ولكن لا عبرة بهذه الأيمان اذ يروى ابن اياس فى حوادث سنة ٩٠٣ هـ ان « كل أيمانهم كانت كاذبة !! » وربما أدى عدم تبادل الثقة بين الجند والأمراء

من ناحية والسلطان من ناحية أخرى الى مطالبتهم السلطان بأن يحلف لهم مثلما حلفوا له ، اذ حدث سنة ٩٠٤ هـ — على قول ابن اياس أنهم قالوا « مثلما حلفنا للسلطان يحلف لنا هو أيضا أنه لا يمسك منا أحدا بغير سبب !! »

حتى فى أوقات الخطر والشدة ، لم يستطع المماليك أن يكفوا أيديهم عن أذى الناس ، فيروى ابن اياس فى حوادث سنة ٩٢١ هـ كيف أنه حدث عندما نودى فى العسكر للتجريدة وللخروج لمواجهة العثمانيين أن المماليك « نزلوا من القلعة وأطلقوا فى الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجـار ، وهجموا عليهم الحارات والبيوت ، ونزلوا الفقهاء من على بغالهم فى وسط الأسواق ، وأخذوهم من تحتهم .. » « وكان من الطبيعى أن يترك ذلك أثره فى الحالة الاقتصادية ، اذ لم تلبث أن أغلقت الطواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ، ووقع القحط بين الناس ، وضج العوام ، وكثر الدعاء على السلطان ، وغلقت أسواق القماش من المـماليك ، واختفى الصنايعية والخياطون ، واضطربت أحوال القاهرة ، واختفى جماعة من التجار خوفا من المماليك .. »

وثمة مظهر آخر من مظاهر التدهور الاقتصادى الذى أصاب البلاد فى ذلك الدور ، هو اهمال مرافقها وتعرضها للخراب . من ذلك ما يذكره ابن اياس فى حوادث سنة ٨٨٣ هـ من انقطاع جسر أبى المنجا « وانقلب عن آخره ، فحصل للبلاد من تحته غاية الضرر وغرق الكثير من أموال الناس والمقطعين » . كذلك يحكى ابن اياس فى حوادث سنة ٩٢٢ هـ كيف انقلب جسر الفيوم وغرقت البلاد . وهكذا نسمع عن ظاهرة انهيار الجسور المقامة على النيل ، مع ما لها من خطورة بالنسبة لوضع البلاد الاقتصادى ، بعد أن كانت هذه الجسور فى الفترة السابقة تخضع لرقابة شديدة ورعاية مستمرة وتفتيش بين حين وآخر من جانب الكشاف وغيرهم .

واذا كان الاستقرار الاقتصادى لا بد له من قدر من الأمن ، فانه يفهم من تأريخ ابن اياس لهذه الفترة الأخيرة من عصر سلاطين المماليك أن النـــاس لم يعودوا يأمنون على أرواحهم أو اموالهـــم • فبالاضافة الى عبث المماليك بأرواح الناس وممتلكاتهم ، كثر الذعر والفساد واللصوص دون أن تستطيع الحكومة أن تكبح جماحهم • فابن اياس يروى فى حوادث سنة ٨٨٨ هـ • انه « كثر قتل القتلى حتى ان شخصا من البياطرة قتل بالجزيرة الوسطى ولا يعلم من قتله ، ووجد شخص من المماليك الايتالية مقتولا بمنزله ولا يعلم من قتله وغير ذلك جماعة كثيرة » ثم يعود ابن اياس فيروى كيف وجدت فى ذى القعدة من سنة ٩١٣ هـ • « امرأة موسطة نصفين ، كل نصف منها مرمى فى حارة ، فلم يعلم من فعل ذلك بها » أما حوادث اعتداء اللصوص فى شكل مناسر — على أسواق القاهرة وسرقة حوانيتها فصارت عديدة ، ذكر ابن اياس الكثير من أخبارها فى حوادث سنة ٨٩١ هـ ، ٩٠١ هـ ، ٩٠٥ هـ ، ٩١٣ هـ ، ٩١٨ هـ ، ٩٢٢ هـ • ويبدو أن بعض تلك العصابات أو المناسر كانت كبيرة العدد والعدة » من مائة نفر ما بين مشاة وركاب ومعهم قسى ونشاب •• » وفى معظم الحالات كان لا يعرف السارق ، ولا يقبض على اللصوص ، وتتم السرقة « دون أن تنتطح فى ذلك شاتان » على قول ابن اياس •

ولا شك أن هذه القلاقل تركت أثرها فى ارتفاع الأسعار بين حين وآخر • فابن اياس يذكر فى حوادث سنة ٨٨٥ هـ • كيف « ضاعت المصالح فى أمور البضائع وغيرها ، وزاد سعر الغلال ، ووقع بالقاهرة تشحيطة فى الخبز » وفى سنة ٨٨٩ هـ يذكر كيف « ارتفع سعر البرسيم حتى بلغ سعر كل فدان عشرة أشرفية ، وعز وجود الضحايا من الغنم والبقر » • وفى سنة ٨٩١ هـ • يروى أن سعر الأرز بلغ « ستة دنانير كل اردب ولا يوجد ، ثم عز جدا حتى تناهى سعره الى اثنى عشرة دينارا كل اردب حتى عد ذلك من النوادر الغريبة » •

واذا كانت هذه هى مظاهر التدهور الاقتصادية فى سلطنة المماليك كما تبدو من كتابات ابن اياس ، فانه يمكن الوقوف على أسباب هذا التدهور من بعض الأحداث المتناثرة التى دأب ابن اياس على ذكرها بين حين وآخر •

ومن هذه الأسباب ما سبقت الاشارة اليه من انحلال نظام المماليك واختلال أمرهم حتى غدوا مصدرا للفوضى وعدم الاستقرار فى البلاد • والمعروف عن المماليك أنهم كانوا فى أول أمرهم يجلبون صغارا حيث تجرى تنشئتهم وفق آداب وتعاليم معينة يشـبون عليها من الصـغر ويلتزمون بها فى الكبر • ولكن مع افتقار سـلطنة المماليك ، دأب السلاطين على شراء المماليك كبارا ــ وقد تجاوزوا سن البلوغ لأنهم فى هذه الحالة كانوا أرخص ثمنا من المماليك الصغار ، وهؤلاء المماليك الكبار يصعب تعليمهم آداب السلوك وتغيير أسلوبهم الذى اعتادوه فى صغرهم مما جعلهم أداة هدم ومعول تخريب فى الدولة • وقد أطلق على هؤلاء المماليك المجلوبين كبارا اسم الجلبان ، وتكاد لا تمر سنة واحدة من الخمسين سنة الأخيرة من عمر دولة سلاطين المماليك دون أن يشير ابن اياس الى فتنة أو ثورة أو اضطراب أحدثه المماليك الجلبان فى الدولة •

ويبدو أن تلك الاضطرابات التى أثارها المماليك الجلبان غدت شيئا عاديا جعل ابن اياس يشير اليها أحيانا وكأنها أمر روتينى فى حياة المجتمع دون أن يحدد وقائع محددة بخصوصها • ومثال ذلك ما يقوله ابن اياس فى حوادث سنة ٨٨٧ هـ من أنه « فى هذه الأيام تزايد شر جماعة المماليك الجلبان وصاروا يأخذون أشياء الناس بلاش من دكاكين التجار وغيرهم ، وحصل للناس منهم غاية الضرر الشامل » •

أما سلاطين المماليك فقد وقفوا وقفة العاجز أمام ذلك الخطر بعد أن «تزايد شر المماليك الجلبان وضيقوا على السلطان وصار معهم

فى غاية الضنك ، على قول ابن اياس فى حوادث سنة ٩٠٢ هـ . ولم تكن ممتلكات السلطان نفسها فى مأمن من عدوان المماليك الجلبان ، فقد حدث مثلا سنة ٩١٧ هـ ــ على حد رواية ابن اياس ــ أن «توجهت طائفة من المماليك الجلبان الى شونة للسلطان ونهبوا أشياء كثيرة من الشعير ، فعز ذلك على السلطان . وكانت المماليك متقحمة على الشر» وبلغ الأمر والضيق بالسلطان الغورى أنه جمع المماليك الجلبان فى الحوش بالقلعة وقال لهم « أنا أخلع نفسى من السلطنة وولوا من تختاروه ! » (حوادث سنة ٩١٧ هـ) . ولم يكن السلطان الغورى هو أول من ضاق ذرعا بالأجلاب وهدد باعتزال منصب السلطنة ، اذ يروى ابن اياس أن السلطان قايتباى عندما اشتد به الضيق من الاضطرابات التى أثارها الجلبان سنة ٨٩٥ هـ . قال لهم « أنا أنزل لكم عن السلطنة وأمضى الى مكة » .

ذلك أن المماليك الجلبان لم يقفوا عند حد معين فى طلب المال ، ولم يقدروا الظروف الاقتصادية السيئة التى مرت بها الدولة . بل انهم تجردوا من أية نزعة بعيدة عن الأثرة التى اتصفوا بها ، فانتهزوا فرصة الأخطار التى أحاطت بالدولة فى ذلك الدور وشددوا طلبهم فى زيادة النفقة ، الأمر الذى جعل السلطان قايتباى يجمع القضاة الأربعة وسائر أمراء الدولة سنة ٨٩٤ هـ ، ويقول لهم ــ حسب رواية ابن اياس ــ ما نصه «هذه المماليك يرومون منى نفقة ، وقد نفد جميع ما فى الخزائن من المال على التجاريد ولم يبق بها شىء من المال ، ثم أقسم بالله بأن نفد منه على التجاريد من حين ولى السلطنة ــ والى الآن ــ سبعة آلاف دينار ومائة وخمسة وستين ألف دينار . ثم قال للأمراء : اختاروا لكم من تسلطنوه غيرى . ثم قام وقال للقضاة : اشهدوا على أنى خلعت نفسى من السلطنة . وشرع يفك ازاره .. فتعلق به القضاة ومنعوه ..»

وهذا النص الذى أورده ابن اياس لا يشير فقط الى مــدى

استهانة المماليك الجلبان بقواعد النظام وآداب السلوك ، وانما يلقى ضوءا على ما كابدته خزانة الدولة فى ذلك الدور من أعباء ثقيلة كان على السلاطين أن يدبروها من أجل اشباع نهم المماليك المتزايد وطلبهم للمـــال .

وليت ســلاطين المماليك عندئذ التزموا نوعا من الاقتصـــاد فى نفقاتهم الخاصة ليخففوا عن رعاياهم الأعباء الثقيلة الملقاة على عواتقهم، وانما استمر المماليك ــ سلطانا وأمراء وجندا ــ يعيشون عيشة البذخ والاسراف ، فى الوقت الذى يئن الناس من كثرة الالتزامات المفروضة عليهم . وها هو السلطان قايتباى الذى أعلن سنة ٨٩٤ هـ . أمام القضاة والأمراء أن جميع ما فى خزائن الدولة من أموال قد نفد ، اذا به فى العام التالى ــ سنة ٨٩٥ هـ ــ يقيم حفلا لمناسبة ختان ابنه محمد ــ الذى تسلطن بعده ــ وكان فى السابعة من عمره . ويتكلم ابن اياس عن هذا الحفل فيقول ما نصه« وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متوالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع سائر مغانى البلد ، ورسم السلطان بأن تزين القاهرة ، فزينت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق ... فكانت تلك الأيام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقادم ما لا ينحصر من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين ألف دينار . فكان من جملة ما أهداه المقر الشهابى أحمد بن العينى طست وابريق ذهب زنته نحو ستمائة مثقال برسم الختان ... »

وفى تلك الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى كانت تمر بها سلطنة المماليك فى خريف عمرها ، لم يكف السلاطين عن دفع الأموال الباهظة فى شراء أعداد كبيرة من المماليك . من ذلك ما يقوله ابن اياس فى حوادث سنة ٩٠١ هـ من أن قايتباى كان « مغرما بمشترى المماليك ، حتى قيل لولا الطواعين التى وقعت فى أيامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك » .

أما السلطان الغورى فيقول عنه ابن اياس فى حوادث سنة ٩٢٢هـ أن خاصكيته تكاملت فى تلك السنة « نحو ألف ومائتى خاصكى من مشترواته » . هذا كله فضلا عن المنشآت الضخمة التى ظل السلاطين يقيمونها حتى أواخر دولتهم . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ما عدده ابن اياس (حوادث سنة ٩٠١ هـ) من منشآت أقامها الأشرف قايتباى أيام دولته : فأقام خلال حكمه من المبانى الفاخرة أربع منشآت فى الحجاز ، ومدرستين بالشام ، ومدرسة بالاسكندرية ، والبرج (القلعة) التى أنشأها مكان المنار القديم (بالاسكندرية) ومدرسة بغزة ، وجوامع بمصر والقاهرة ، فضلا عن المدارس والسبل والمكاتب والزوايا والأسبلة والقناطر والربوع ، كما أنشأ وجدد بالقلعة عدة منشآت .

وزاد من سوء الأحوال الاقتصادية فى ذلك الدور أن الطبيعة لم ترحم البلاد .

ويروى ابن اياس كيف انتشر الطاعون فى مصر عدة مرات سنوات ٨٧٣ هـ ، ٨٨٨ هـ ، ٨٩٧ هـ ٩٠٣ هـ ، ٩٠٩ هـ ٩١٢ هـ ، ٩١٩ هـ ، ومن هذا يبدو أن الناس ما كادوا يفيقون من موجة من موجات الطاعون حتى يتعرضون لموجة كاسحة جديدة . وفى ذلك يروى ابن اياس عن لسان الشهاب المنصورى نظمه :

لهفى على مصر وولدانهــا أضحوا الى المــوت يساقونا
ما نشر الفصل ســهام الردى عليهـــم الا طواعينـــا

ويحكى ابن اياس عن الطاعون الذى انتشر سنة ٨٩٧ هـ . بأنه كان الطاعون الثالث الذى وقع فى دولة الأشرف قايتباى ، وأنه « فتك فى الناس فتكا ذريعا » حتى لقد بلغ عدد من مات به وأبلغ اسمه فعلا لديوان المواريث نحوا من مائتى ألف انسان . ويعلل ابن اياس فى حوادث سنة ٨٩٧ هـ ، هذه الطواعين بالفساد الذى عم البلاد ، وأنها

جاءت نقمة من الله بعد أن « كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك فى حق الناس •• » •

يضاف الى ذلك ما كان مألوفا بين حين وآخر فى تلك العصور من انخفاض النيل وتعرض الحاصلات لبعض الآفات ، مما كان يعود على الحياة الاقتصادية بأفدح العواقب •

يقول ابن اياس فى حوادث سنة ٨٩١ هـ ان فيها « تناهى سعر البرسيم كل فدان مخضر باثنى عشر دينارا ، وأبيع الدريس كل مائة قتة بأربعمائة درهم ••• وسبب ذلك أن حب البرسيم كان غاليا فى تلك السنة ، وكان النيل خسيسا • والذى طلع من البرسيم أكلت غالبه الدودة • وكان سعر الغلال جميعه مرتفعا فى هذه السنة ، حتى غلا سعر الرواية الماء من عدم العلف لجمال السقايين » •

وفى الوقت الذى تعرض الفلاح لهذه الأزمات الاقتصادية التى جاءت نتيجة لفعل الطبيعة ، ما بين وباء ونقص فى ماء النيل ، وآفات تلتهم المحاصيل ••• اذا به لا يسلم من خطر العربان ، الذين دأبوا على افساد البلاد والاعتداء على الفلاحين ونهب مواشيهم ومحاصيلهم ، مما جعل الريف يتعرض لأزمات تخريبية زادت الأحوال الاقتصادية فى البلاد سوءا فوق سوء • وقد أفاض ابن اياس فى وصف عيث العربان بالبلاد وتعديهم على العباد ، وذلك فى ذكره لأحداث سنة ٨٧٣ هـ ، وسنة ٨٧٦ هـ ، وسنة ٨٩١ هـ ، وسنة ٩٠٤ هـ ، وسنة ٩١٨ هـ ، وسنة ٩٢٠ هـ • ولم تقف سلطنة المماليك مكتوفة الأيدى أمام عدوان العربان، وانما خرجت الجيوش الى الصعيد والبحيرة والشرقية والجيزة للضرب على أيديهم ، ولكن فى كل مرة تعود فيها الجيوش كان يتجدد من العربان « ما لا خير فيه من نهب البلاد وسلب المسافرين ، ووقع منهم غاية الفساد » • ويؤكد ابن اياس كيف تزايد فساد بنى حرام وبنى وائل فى سنة ٨٧٦ هـ حتى « فسدت أحوال الشرقية » • أما فى سنة ٩٠٤ هـ

فيحكى ابن اياس أن الأخبار جاءت من البحيرة بأن العربان « نهبوا البلاد وأسروا النساء وقتلوا الأطفال •• » وفى سنة ٩١٨ هـ « تحالفت سبع طوائف من العربان (بالبحيرة) أن يكونوا كلمة واحدة على العصيان •• وقد آل أمر تلك الجهات الى الخراب » • كذلك يروى ابن اياس أن خطر العربان اشتد فى تلك السنة نفسها فى الصعيد •• وفى سـنة ٩٢٢ هـ • يقول ابن اياس ان عربان بنى عطية والنعايم « نهبوا ضياع الشرقية ، وأخذوا منها نحوا من أربعمائة رأس من الغنم ودخلوا وادى العياسه » • بل بلغ الأمر بالعربان فى سنتى ٨٧٦ هـ ، ٨٧٩ هـ ، أن « هجموا على القـاهرة حتى وصـلوا الى رأس خط الحسينية ونهبوا الدكاكين وسلبوا أثواب الناس ، واستمر الحال على ذلك من بعد العصر الى بعد المغرب فرجعوا حيث جاءوا » •

هذا غير الأسباب الداخلية للانهيار الاقتصادى فى أواخر عصر المماليك كما نستشفها من كتابات ابن اياس ، وثمة أسباب أخرى ترتبط بعوامل خارجية نستطيع أن نضع عليها أيدينا من ثنايا ما كتبه ذلك المؤرخ الكبير • من هذه العوامل والأسباب ما يرتبط بطمع الأعداء فى أرض دولة المماليك وتجرئهم على غزوها بعد أن اتضح لهم أنها فى ذلك الدور الأخير من عمرها أضعف من أن تستطيع الدفاع عن كيانها •

ويشير ابن اياس فى حوادث ٨٧٢ هـ الى ما كان بين سلطنة المماليك وشاه سوار من أمراء التركمان على الحدود الشمالية للدولة ـــ من حروب ، كما يشير فى حوادث سنة ٨٨٨ هـ الى أن على بن دولات بن دلغادر هاجم ملطية فى جمع كبير من العساكر « فانزعج السلطان لهذا الخبر » • أما هجمات العثمانيين على أطراف دولة المماليك فيشير اليها ابن اياس فى حوادث سنة ٨٩٠ هـ، ٨٩١ هـ، ٨٩٣هـ، وغيرها • وبعض الهجمات التى تعرضت لها سلطنة المماليك فى ذلك الدور ، جاءت من ناحية البحر المتوسط ، اذ دأب الفرنج وقراصنتهم على مهاجمة شواطىء

الدولة وموانيها وقطع الطريق على سفنها التجارية فى عرض البحر •
من ذلك ما يشـــير اليه ابن اياس فى حوادث سنة ٨٧٨ هـ من انه
« جاءت الأخبار من الاسكندرية بان الفرنج قد تعبثوا ببعض سواحلها
وأسروا من المسلمين تسعة أنفار ، وفعلوا مثل ذلك بثغر دمياط » ،
وذكر ابن اياس أحداثا مشابهة تشـــير الى عدوان الفرنج فى البحر
المتوسط على موانى دولة المماليك وسفنها فى حوادث سنة ٩١٣ هـ
٩١٤ هـ ، ٩١٥ هـ •

ومن الواضح أن خطورة مثل هذه الهجمات المعادية على أطراف
الدولة وسواحلها لا تقف من الناحية الاقتصادية عند حد ما كانت تحدثه
من خراب وتدمير ، وانما كانت تتطلب للحد من خطرها ومقاومتهـا
نفقات باهظة تلقى على خزانة الدولة مزيدا من الأعباء فى وقت اشتد
طمع الجند وازدادت شراهتهم للمال وصاروا لا يتحركون ولا يخرجون
فى تجريدة الا بعد أن يتقاضوا الثمن أضعافا مضاعفة • من ذلك ما يشير
اليه ابن اياس من أن السلطان قايتباى عندما أخرج تجريدة ضد شاه
سوار سنة ٨٧٢ هـ « نفق على كل مملوك جامكية أربعة شهور معجلا
وصرف لهم الكسوة ، وأعطى لكل واحد جملا وأرضى العسكر بكل
ما يمكن » أما النفقة على الأمراء والجند الذين خرجوا سنة ٨٨٨ هـ فى
حملة ضد على بن دولات بن دلغادر ، فيحكى ابن اياس انها بلغت
« زيادة على السبعين الف دينار •• » وفى سنة ٨٩٣ هـ ، خرجت حملة
ضد العثمانيين الذين استولوا على اياس ، فكانت « جملة النفقة على
الأمراء والجند نحوا من ألف دينار » وذلك على قـــول ابن اياس فى
حوادث سنة ٨٩٣ - •

ومهما يكن من أمر تلك الحروب الدفاعية التى قامت بها سلطنة
المماليك فى ذلك الدور ، فانها فى نظرنا كانت حروبا استنزافية جاءت
لتلقى أعباء جديدة ثقيلة على خزانة الدولة ، وبالتـــالى فانها زادت
الأوضاع الاقتصادية سوءا فوق سوء •

على أنه لا يخفى علينا أن العامل الأساسي في تدهور الحياة الاقتصادية في أواخر عصر سلطنة المماليك ، انما يكمن في كساد تجارتها . ذلك أنه من المعروف أن دولة المماليك بنت قوتها واستمدت ثروتها من قيامها بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب ، في عصر انسدت معظم طرق التجارة الداخلية بين الشرق والغرب بسبب ظهور التتار على مسرح الشرق الأوسط ، بحيث لم يبق خارج سيطرتهم الا طريق البحر الأحمر ــ عبر أراضي دولة المماليك الى البحر المتوسط . ولكن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ووصول البرتغاليين الى الهند عن طريق الالتفاف حول افريقية حرم سلطنة المماليك من المورد الأول لثروتها وقوتها ، مما أنزل ضربة قاصمة بوضعها الاقتصادي . ويصور ابن اياس ما أصاب اقتصاد الدولة في ذلك الدور من خراب نتيجة لكساد تجارتها في عبارة ذكرها في حوادث سنة ٩٢٠ هـ ، اذ يقول ما نصه « وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحات والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه القطائع (السفن) في السنة الخالية . وبندر جدة خراب بسبب تعبث الفرنج على التجار في بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحوا من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط » .

ويبدو مما كتبه ابن اياس أن سلطنة المماليك ما كادت تحس بذلك الخطر المفاجيء حتى استماتت في دفعه ، فيذكر في حوادث سنة ٩١١ هـ ، ٩١٣ هـ كيف اهتم الغوري ببناء السفن في البحر الأحمر وارسال الجند « بسبب تعبث الفرنج بسواحل الهند » . كذلك يذكر ابن اياس في حوادث سنة ٩١٩ هـ انه « حضر هجان من مكة في مسافة تسعة أيام وأخبر بأن الفرنج قد ملكوا كمران (١) وأنهم بيحاصروا مدينة سواكن ، وأن الشريف بركات أمير مكة خرج الى جدة .. خوفا على

(١) جزيرة قبالة زبيد باليمن (ياقوت)

البندر من الفرنج أن يهجموا عليه •• » ثم يستمر ابن اياس فيروى مدى اهتمام السلطان الغورى لهذه الأخبار حتى انه ذهب بنفسه الى السويس سنة ٩٢٠ هـ « ليكشف عن المراكب التى أنشأها هناك •• » على أن الغورى لم يستطع أن يرجع عقارب الساعة الى الوراء ، ولم ينجح فى التغلب على البرتغاليين • وبضياع تجارة الشرق ، فقدت سلطنة المماليك كل شىء ••

وبعد هذا العرض لمظاهر التدهور الاقتصادى وعوامله فى الخمسين سنة الأخيرة من عمر دولة المماليك ، يصح أن نتساءل عن الجهود التى حاول بها سلاطين المماليك فى ذلك الدور علاج ذلك التدهور • هنا يبدو بوضوح من كتابات ابن اياس أن سلاطين المماليك لم يقوموا فى حقيقة الأمر بمحاولات جدية لاصلاح أسباب الداء ، وعلاج مظاهر التدهور الاقتصادى علاجا جذريا • وكان كل ما قام به سلاطين المماليك ازاء الخراب الاقتصادى الذى ألم بالدولة فى ذلك الدور هو اتباع أساليب غير مشروعة لتعويض خزانة الدولة عما فقدته ، وتمكينهم من النهوض بالأعباء الملقاة على عاتق الحكومة ، فضلا عن اشباع المطالب الخاصة للسلاطين أنفسهم • ولئن نجحت هذه الأساليب فى توفير بعض الأموال المطلوبة للسلاطين ، فانها من الناحية الاقتصادية زادت الطين بلة ، وأسرعت بالخراب الذى حل بالدولة وبمرافقها ، مما عجل بنهايتها المحتومة •

من ذلك ما لجأ اليه سلاطين المماليك فى تلك الحقبة من تطبيق سياسة الاحتكار والتوسع فى نشاط المتجر السلطانى • والمعروف أن سياسة الاحتكار التى توسع فيها السلاطين منذ أيام برسباى ، قامت على أساس احتكار السلاطين أصنافا معينة من البضائع لا يجوز لأى فرد آخر أن يتاجر فيها ، مما ضمن للسلاطين ايرادا ضخما وخاصة من وراء بعض حاصلات الشرق التى احتكر سلاطين المماليك بيعها للتجار

الأوروبيين • وأما المتجر السلطاني فالمقصود به أن السلطان كان يستغل أمواله بتشغيلها في التجارة طلبا للكسب ، وبذلك ينافس أرباب الأعمال والتجار في أرزاقهم • ويروى ابن اياس عن السلطان الغورى فى حوادث سنة ٩١٩ هـ • أنه كان « يشترى القمح ويرسله الى الشام فانه كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وصل فيها كل اردب قمح الى سبعة أشرفية ، فكان يشترى القمح من مصر ويرسله الى البلاد الشامية ، فانشحطت القاهرة من الخبز والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد •• » وهكذا استغل السلطان الغورى الفارق فى سعر القمح بين مصر والشام ليشترى كميات كبيرة من القمح لحسابه الخاص ويرسلها الى الشام ليحصل على فرق الثمن ، غير مبال بما يعانيه شعبه فى مصر والشام جميعا من جراء هذا الاستغلال •

ولم يكتف سلاطين المماليك بذلك ، وانما تحايلوا من أجل الحصول على المال بمصادرة أموال الناس وأملاكهم ، فكان يكفى أن تظهر على أحد رجال الدولة دلائل النعمة حتى يكون هدفا سهلا للسلطان يقرر عليه المبالغ الضخمة ليدفعها ، والا فبئس المصير • ويذكر ابن اياس فى حوادث سنة ٨٧٢ هـ أن أحمد بن العينى عندما قرر فى امرة مجلس ظهرت عليه علامات النعمة المفرطة حتى أطلق عليه « عزيز مصر » فما كان من السلطان قايتباى الا أن قرر عليه مبلغا ضخما من المال يدفعه ، فلما تباطأ فى الدفع استدعاه السلطان « وبطحه على الأرض بالدهيشة، وقام اليه وتولى ضربه بيده ، فضربه نحوا من عشرين عصاه حتى شق كعبه وأدمى ، فأغمى عليه •• » وقد تعهد ابن العينى بان يقسط المبلغ المطلوب منه على أقساط شهرية ، فكان كل شهر يدفع للسلطان بضعة آلاف من الدنانير « الذهب النقد » !! كذلك يذكر ابن اياس ان السلطان قايتباى صادر سنة ٨٩٦ هـ مهتـاره رمضان بلا ذنب سوى انه رأى عليه معالم « العز والعظمة » • وما زال « يضيق عليه حتى أخذ منه ستين ألف دينار » •

ولم يكن السلطان قايتباى وحده هو الذى اتبع سياسة المصادرات وانما دأب على اتباع هذه السياسة بقية سلاطين المماليك حتى نهاية دولتهم • فابن اياس يقول عن السلطان الظاهر قانصوه فى حوادث سنة ٩٠٥ هـ ان « من مساوئه أنه ظلم جماعة من أعيان الناس من رجال ونساء ، وأخذ أملاكهم غصبا » • ويقول فى حوادث نفس السنة عن السلطان الأشرف جان بلاط انه عندما طلب منه المماليك نفقة البيعة « أخذ فى أسباب جمع الأموال ، فأطلق فى الناس نار المصادرة ، وقبض على جماعة الأعيان ، ووزع على قضاة القضاة مالا له صورة •• واشتد الأمر على الناس بسبب المصادرات ، وقاست أعيان الناس من البهدلة والانكاد مالا يعبر عنه •• »

ومن الواضح أن أعمال المصادرات كانت تشتد عسفا كلما امتد الوقت بدولة المماليك وازداد عسرها المالى ، حتى اذا ما جاء عصر الغورى كانت سياسة المصادرات قد بلغت أشدها • ويروى ابن اياس فى حوادث سنة ٩٠٧ هـ أن المماليك عندما طلبوا النفقة من السلطان الغورى « ظل يصبرهم نحوا من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات » • ثم يقول ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٥ هـ انه « صودر فى هذه السـنة جماعة كثيرة من أعيان النـاس » ولم تقتصر هذه المصادرات على الأموال السائلة والعقارات وانما امتدت الى غيرها ، حسب حاجة السلطان • من ذلك ما يقوله ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٩ هـ من أنه عندما اشتدت حاجة السلطان الى الأخشاب لبناء السفن فى السويس لمنازلة البرتغاليين ، فان رجاله « صاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصبا باليد ، ويرسلونه الى السويس لاجل عمارة المراكب هناك » •

وثمة نوع آخر من المصادرات لجأ اليه سلاطين المماليك فى ذلك الدور لتدبير المال اللازم لهم ، هو قطع أرزاق الناس ــ وخاصة الفقهاء

والمتعممين وحرمانهم من مرتباتهم العينية أو انقاصها ، حتى انتهى الأمر بأن امتدت أيدى السلاطين الى الأوقاف الشرعية لحرمان مستحقيها من نصيبهم منها ، وسلب أموالها وريعها • من ذلك ما يذكره ابن اياس فى حوادث سنة ٨٧٣ هـ من « قطع مرتبات اللحوم التى كانت للفقهاء والمتعممين فى هذه الحركة غاية الضرر والبهدلة ، وما أبقى فى ذلك ممكن ، فقطع لحوم جماعة كثيرة من أولاد الناس والفقهاء والمتعممين والنساء •• وهذا فتح باب أول المظالم ، وصـار الأمر يتزايد بعد ذلك •• » وكان من الطبيعي أن تسترعى الأوقاف الشرعية نظر السلاطين، فيحكى ابن اياس فى حوادث سنة ٨٧٢ هـ أنه عندما منيت جيوش السلطان قايتباى بالهزيمة أمام التركمان ، عقد السلطان مجلسا بالقلعة حضره الخليفة العباسى والقضاة •• وألقى كاتب السر خطابا طويلا عن لسان السـلطان قال فيه •• « ان الأوقاف قد كثرت على الجوامع والمساجد ، وان قصد السلطان يبقى لهم ما يقوم بالشـعائر ويدخل الفائض الى الذخيرة (الخزانة السلطانية) •• » ولكن التاريخ يسجل لقاضى القضاة الحنفية شجاعته فى ذلك الموقف اذ قام وقال « لا يحق للسلطان أخذ أموال الناس الا بوجه شرعى » !!

على أن تلك المعارضة لم تحل بين سلاطين المماليك وبين تنفيذ أطماعهم فى الأوقاف • فيروى ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٤ هـ كيف أن السلطان الغورى « تعرض للرزق الأحباسية والأوقاف •• فحصل للناس الضرر الشامل ولا سيما أولاد الناس •• وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلها •• » ثم يضيف ابن اياس ــ فى حسرة وألم ــ قائلا « وأنا من جملة من وقع لهذلك » أى أنه كان من جملة من صودرت اقطاعاتهم • وما زال ابن اياس يقف للسلطان الغورى يشكو له حاله ، حتى رق له وأمر باعادة اقطاعه اليه فى العام التالى (سنة ٩١٥ هـ) •

ولا يقلل من سياسة المصادرات هذه ، ما لجأ اليه سلاطين المماليك

وقت الأزمات والشدائد من توبة الى الله ، وعودة الى طريق الحق عسى أن يكشف الله عنهم الغمة ويبدد الظلمة • من ذلك ما يرويه ابن اياس في حوادث سنة ٩١٥ هـ من أن السلطان الغوري نادى « بان لا يتجاهروا الناس بالمعاصي ، ولا يمشي بسلاح من بعد المغرب ، وأن الناس يواظبون على الصلوات الخمس في الجوامع •• !! » ويعلق ابن اياس على هذه التعليمات قائلا ان الناس « سمعوا من أذن وخرج من أخرى •• »

وثمة وسيلة أخرى لجأ اليها سلاطين المماليك في ذلك الدور للحصول على المال ، هي التلاعب بالعملة • ويذكر ابن اياس في حوادث سنة ٨٧٩ هـ • أن السلطان قايتباي ضرب فلوسا جددا وأراد ان يجعل سعرها أغلى من الفلوس العتق ليجني السلطان الفرق بين السعرين • وكانت الفلوس تقيم بالوزن لا بالعد ، فجعل السلطان كل رطل من الفلوس الجدد بست وثلاثين ، في حين كان كل رطل من الفلوس العتق بأربعة وعشرين « فخسر الناس في هذه الحركة الثلث من أموالها » على قول ابن اياس • ولا شك في أن التلاعب بالعملة على هذا النحو من شأنه أن يخلق حالة من عدم الاستقرار بالسوق ، الأمر الذي يزيد من ارتباك الأوضاع الاقتصادية بالدولة • ويردد ابن اياس هذه المعاني عند سرده لأحداث سنة ٨٨١ هـ ، فيذكر كيف « كثر الضرر منها على البائع ••• وحصل بسبب ذلك للناس غاية المشقة » •

وكان من الطبيعي أن يكون للمكوس والضرائب دورها الكبير في اشباع رغبة السلاطين في الحصول على الأموال • فالسلطان قايتباي عندما احتاج الى أموال لاخراج تجريدة ضد العثمانيين سنة ٨٩٢ هـ ، أمر المحتسب بجمع أعيان التجار وفرض عليهم أربعين ألف دينار قائلا لهم « ساعدوني بشيء من المال على خروج التجريدة » ولكن التجار ضجوا من ذلك ، وما زالت المفاوضات جارية بين الطرفين حتى قبل

التجار أن يدفعوا اثنى عشر ألف دينار • وبالاضافة الى الضرائب المباشره التى كان يفرضها السلطان على التجار على شكل اتاوات ، لجأ سلاطين المماليك فى ذلك الدور ، الى فرض بضائع معينة على التجار ، يشترونها من السلطان بالأثمان التى يحددها هو ، ويخسرون فيها أموالا طائلة ، مما أدى الى زعزعة الحالة الاقتصادية فى الأسواق • ويذكر ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٧ هـ أن السلطان الغورى « أرمى على التجار قاطبة شاشات وأزرا وأثوابا صوفا ، وأرمى على السوقة زيتا وعسلا وزبيبا وأصناف بضائع يخسرون فيها الثلث ، وصاروا يستحثونهم فى سرعة الثمن لأجل النفقة ، فغلقت الأسواق بسبب ذلك ، وأقامت مغلوقة أياما » •

ومرة أخرى احتاج الغورى الى أموال لأجل النفقة على الجند سنة ٩٢١ هـ ، وعندئذ يروى ابن اياس ان السلطان « أخرج من حواصل الذخيرة أشياء كثيرة من الأمتعة التى كانت بالحواصل من ترك الخوندات والستات التى ماتوا واحتوى السلطان على موجودهم ، ما بين قماش وبشاخين زركش وعنبر وأوانى بللور وصينى وكفت وغير ذلك ، وأخرج بعلبكى وأثواب صوف قبرسى وغير ذلك ، فقوم ذلك بنحو خمسين ألف دينار ، فطلب التجار وأرمى عليهم تلك الأصناف بأغلى الأثمان ، فأطلق فى التجار النار •• وشدد على التجار فى جبى الأموال ، فجبيت منهم فى مدة يسيرة لأجل النفقة ، وحصل على التجار الضرر الشامل ، وقد خسروا فى الأثواب الصوف النصف ، فانهم كانوا معتوتين •• »

ولم يكن أهل الريف ــ من المقطعين وغيرهم ــ بمنجاة من ظلم السلاطين ، وانما امتدت يد العسف اليهم • ففى الوقت الذى كان رجال السلطان يضيقون على التجار فى العاصمة لسلب أموالهم ، كان الكشاف فى الاقاليم ينفذون تعاليم السلطان بجمع الأموال من المقطعين• ويروى ابن اياس انه حدث سنة ٨٩٣ هـ أن جدد السلطان قايتباى

« مظلمة شنيعة ، وهى أنه أرسل لكاشف الشرقية بأن يأخذ من البلاد الخمس من خراج المقطعين .. فحصل للمقطعين غاية الضرر من كبس البلاد والقبض على الفلاحين .. وقد جبى الخمس من خراج المقطعين سنتين متواليتين .. » وقد تكرر جمع الخمس من ضواحى الشرقية مرة أخرى سنة ٨٩٥ هـ عندما تجددت حاجة السلطان الى المال لمواجهة خطر العثمانيين .

وربما لجأ السلطان الى جمع خراج الأرض من المزارعين والفلاحين قبل استحقاقه وقبل جمع المحصول الجديد ، بل حتى قبل موسم فيضان النيل ، مما عرضهم لكثير من المظالم . من ذلك ما جاء على قلم ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٨ هـ من أن السلطان الغورى رسم « لكاشف الشرقية وكاشف الغربية بأن ينزلوا على البلاد ويستخرجوا من الفلاحين الحمايات والشياخة وقدوم الكشاف عن سنة ثمان عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل وقبل أن تنزل النقطة وينادى على النيل ، فحصل للمقطعين غاية الضرر ، وصارت الكشاف تنزل على البلاد وتكبس على الفلاحين ويستخرجون منهم الأموال بالضرب ، والذى يهرب يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم ، فخرب غالب البلاد ، ورحلت عنها الفلاحون » . ولعل الفقرة الأخيرة من عبارة ابن اياس توضح لنا مدى الخراب الاقتصادى الذى حل بريف مصر فى ذلك الدور نتيجة للسياسة الغاشمة التى اتبعها سلاطين المماليك من أجل جمع الأموال .

ولم يكن الصعيد أحسن حالا من الوجه البحرى ، اذ يروى ابن اياس فى حوادث سنة ٩١٩ هـ أنه حضر الى السلطان أحد كبار أمراء المماليك « وكان مسافرا فى جهات بلاد الصعيد وصحبته جماعة كثيرة من مشايخ عربان الصعيد والمدركين وجماعة كثيرة من الفلاحين والمزارعين وهم فى الحديد بسبب ما تأخر عليهم من المغل » هذا كله بالاضافة الى ما كان يغتصبه رجال السلطان من الخيل ونحوها فى أوقات الحاجة،

فكانوا ينزلون على كل بلد ويفرضون عليه فرسين قيمتهما مائة دينار، فاذا كانت البلدة كبيرة فرضوا عليها أربعة • ويروى ابن اياس فى حوادث سنة ٩٢٢ هـ أن الفلاحين ضجوا من ذلك « وأخلوا من البلاد، وتركوا زروعهم فى الأرض ورحلوا ، وضرب بعض البلاد فى هذه الحركة •• » وهكذا أدت سياسة سلاطين المماليك الى خراب الزرع والضرع •

ولم يكن أرباب العقارات فى مصر والقاهرة بمنجاة من هـذا التطرف فى فرض المكوس ، فيحكى ابن اياس أن السلطان قايتباى عندما احتاج لمال سنة ٨٩٦ هـ عقد مجلسا دعا اليه قضاة القضاء الأربعة وشرح لهم سوء الحالة الاقتصادية وحاجته الى مال لارسـال تجريدة لمحاربة ابن عثمان ثم أوضح هدفه فقال « ان القصد أن أفرض عـلى الأوقاف والأملاك التى بمصر والقاهرة من أماكن وغيطان وحمـامات وطواحين ومراكب وغير ذلك أجرة سنة كاملة ، اتعان بها على خروج التجريدة •• » فرد عليه القاضى المالكى قائلا « ان أجرة سنة كاملة يثقل على الناس ولا يطيقون ذلك • وان كان لابد من ذلك فليفرض عليهم أجرة خمسة أشهر ، وقبل ذلك افرض عليهم أجرة شهرين ، فهذه سبعة أشهر • وما يطيق الحال أكثر من ذلك •• » وكان أن تم الأمر على ذلك ، فأخذ السلطان من أجرة أملاك القاهرة ومصر سبعة أشهر مقدما ، ولم يستثن من ذلك الأوقاف والجوامع والمدارس « فاضطربت الأحوال وكثر القيل والقال •• « ويشرح ابن اياس فى حوادث سـنة ٨٩٦ هـ كيف جمع السلطان تلك الأموال ، اذ توجه « الرسل الغلاظ الشداد ، ولم يراعوا الوداد ، وطلبوا أعيان الناس ، وانقطع الرجـاء باليأس ، وصار الانسان يخرج من داره فيرى أربعة من الرسل فى استنظاره ، فيكون نهاره أغبر ، ويخرج وهو فى أذياله يتعثر ، فيقدحون فيه الزناد ، ولا يرى له من اعتماد • وقال بعض الموالة فى المعنى :

غـــرمت شــهرين عن أجـرة مــكانى أمس
وأصبحت مغمــوس فى بحــــر المغارم غمس

أقسم ورب الخــلايق والقمـــر والشمس
ما طقت شــهرين كيف أقــدر اطيق خمس

ومن المكوس التى استحدثها السلطان قايتباى فى ذلك الــدور واستثارت لعنة رعاياه مكس الغلة ، اذ يروى ابن اياس فى حــــوادث سنة ٩٠١ هـ أن السلطان قايتباى أحدث مكسبا على بيع الغلال وجعل على كل اردب قمح أو شــعير نصف فضة خارجا عن ثمنه لمن يشترى أو يبيع ، وقد تزايد الأمر بعد ذلك الى أن صارت نصفين « فــكانت هذه الفعلة من أقبح مساوئه ، واستمر ذلك فى صحيفته الى الآن ٠٠»

وزاد من ارتباك الأوضاع الاقتصادية ، فى تلك الحقبة ، ماعرف باسم المشاهرة والمجامعة ، وهى ضريبة تجمع من الســـوقة وتدفع للمحتسب كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية ٠ وقد بلغ من قسـوة هذه الضريبة ان زادت شهريا على الألفى دينار ٠ ويقول ابن اياس فى حوادث سنة ٩٢٢ هـ ان هذه الضريبة كانت « من أكبر أسباب الفساد فى حق المسلمين » ٠ وكذلك يوضح فى حوادث سنة ٩٢١ هـ أن الباعة اضطروا الى تعويض قيمة هذه الضريبة عن طريق رفع أثمان البضـــائع فاشتد الغلاء وعز وجود أصناف كثيرة من البضــــائع ، حتى اضــطر السلطان الى الغائها سنة ٩٢٢ هـ ٠ بعد أن ارتفعت الأصوات بالشكوى من ذلك أن المماليك صاحوا فى الأمراء قائلين «نحن ما نطلب منه نفقة، وانما نطلب أن يبطل المجامعة والمشاهرة التى قررها على السوقة فى الدكاكين وعلى سائر البضائع ، حتى ما نلتقى شىء نأكله ٠٠ » ٠ أما أغوات الجند فقد صاحوا فى السلطان « ان جميع البضائع غالية بسبب المشاهرة والمجامعة التى قررت على السوقة ، وأن كل شىء غال حتى

الخام والبعلبكي والتبن ما يوجد .. ليه ما تمشي على طريقة الملوك السالفة ونقل هذا الظلم ؟..

وفي الوقت الذي كان التجار داخل البلاد يتعرضون لهذه المظالم التي يقع جزء منها بدوره على المستهلك ، تعرض التجار الأجانب الوافدون على مواني الدولة في مصر والحجاز وغيرها لنفس السياسة التعسفية التي طبقها سلاطين تلك الفترة الأخيرة من دولة المماليك ، الأمر الذي جعل التجار ينصرفون عن المتاجرة مع الدولة في الوقت الذي ظهرت معالم الطريق الجديد حول افريقية الى الهند . وهكذا ذبلت الاسكندرية ودمياط وجدة وغيرها من ثغور الدولة وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار تجنبا لدفع المكوس الباهظة التي فرضها سلاطين المماليك . ويقول ابن اياس عن مدينة الاسكندرية في حوادث سنة ٩٢٠ هـ . عندما زارها السلطان الغوري أنها كانت « في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون من التجار العشر عشرة أمثال ، فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول الى الثغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها الى الخراب ، حتى قيل طلب الخبز فلم يوجد بها ، ولا الأكل ، ووجد بعض الدكاكين مفتحة والبقية لم تفتح .. »

وما يقال عن الاسكندرية ينطبق على غيرها من ثغور الدولة . يقول ابن اياس في حوادث سنة ٩٢٢ هـ . ما نصه « وكان حسين نائب جدة يأخذ العشر من تجار الهند المثل عشرة أمثال ، فامتنعت التجار من دخول بندر جدة ، وآل أمره الى الخراب وكذلك الاسكندرية ودمياط . فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج » .

* * *

وبعد ، فلعله بعد هذا العرض السريع يتضح لنا من ثنايا ما كتبه

ابن اياس في كتابه بدائع الزهور كيف تدهورت الأحوال الاقتصادية في أواخر عصر دولة المماليك ، وان هذا التدهور لم يكن نتيجة عامل واحد أو سبب بعينه ، وانما جاء وليد أسباب وعوامل عدة تضافرت لتهز قواعد تلك الدولة هزا عنيفا ، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها. وبضياع المال والاقتصاد خسر المماليك كل شيء ، حتى دولتهم خسروها سنة ٩٢٣ هـ .

التعبيرات الحضارية عند ابن إياس

للدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ التاريخ الاسلامى ـ ورئيس قسم التاريخ
كلية الآداب ـ جامعة عين شمس

التعبيرات الحضارية عند ابن اياس

اشتهرت مصر في العصور الوسطى بمؤرخيها العظام ، ولا سيما في العصر المملوكي ، ونخص بالذكر منهم ابن اياس (١) أو أياس ، الذى ظهر اهتمام عالمي به في العصر الحديث ، فترجم له كبار المستشرقين (٢) في الغرب مقتبسات عديدة من كتبه ، أما نحن في مصر فقد بدأنا نهتم به أيضا ، بتخصيص هذه الأبحاث عنه .

ولا أظن أن أحدا من قبل اهتم بالتعبيرات الحضارية عند ابن اياس ، مع أن كتبه تحتوى على كنوز لا تحصى منها ، توجد مجموعة أو مبعثرة في حولياته ، التى تمتد الى مئات السنين . ومن قبل لاحظ الدكتور زيادة (٣) أن ابن اياس في عام ٩٠٨ هـ ١٥٠٢ م ، وقد قدم تصورا استاتيكيا نادرا لجميع كبار الموظفين في الدولة المملوكية. حقا ان التعبيرات الحضارية عند ابن اياس أو غيره ، يمضى الوقت ، قد

(١) هو أبو البركات محمد بن أحمد زين الدين الناصرى الجركسى الحنفى .

(٢) مثل : Wiet, Sauvaget, Kahle.

(٣) أنظر . مصطفى زيادة : مقتبسات من ابن اياس ، المجلد ١٢ ، المجلة التاريخية المصرية ، ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ ؛ ص ٢٠٣ وما بعدها .

يصبح لها معنى مختلف ، الا أن قيمتها فى أنها تعكس على كل حـال ما كان موجودا بالفعل ، فضلا عن أن المؤرخ ببراعته ، قد يكون مثل النحلة ، التى تنتج عسلها من أزاهير غير معروفة ، أو حتى قليلة •

ولا أشك في أن قصد ابن اياس بالفعل كان أن يملأ كتبـه بالتعبيرات الحضارية بدليل أن هدفه كان هو كتابة تاريخ كامل لمصر منذ أيام الفراعنة الى وقته ، وذلك على عكس كثير من المؤرخين المسلمين الذين اذا كتبوا التاريخ العام ، فانهم يربطون تاريخ الاسلام بآدم ، أول البشر • حقا ان ابن اياس قد تناول تاريخ مصر من أوله بايجاز شديد ، الا أنه منذ أوائل القرن التاسع الهجرى / السادس عشر الميلادى ، أصبح يأخذ ملاحظاته يوما بيوم كشاهد عيـان ، ولا يكتفى بالسرد التاريخى ، فيذكر النظم السياسية وقواعد الحكم فى السلطنة المملوكية ، وكل ما يتعلق بالحياة المصرية ، بحيث اعتبر كلامه عنها وصفا للقـاهرة وحياتها ، فى هذا القرن •

يضاف الى ذلك أن الفترة التى عاش فيها ابن اياس ، هى فترة حساسة جدا بالنسبة لتاريخ مصر الاسلامية بالذات ، لما ترتب عليهـا من تغير هام فى كيانها السياسى والاجتماعى • فقد عاش فى أواخـر أيام الحكم المملوكى ، وشاهد تدهوره وسقوطه ، حينما قضى عليـه العثمانيون ، فوجوده فى هذه الفترة بالذات ، يعنى أنه شاهد حضارة شامخة ، تتساقط قطعة قطعة ، الى أن انتهى أمرها بالزوال ، اذ يصف لنا فى كتبه عوامل الفساد التى استشرت فى أيام المماليك الأخيرة ، مما أدى الى سقوط دولتهم ، بحيث نحس أن فترة اضمحلال وانحلال أخرى قد وقعت بالفعل فى تاريخ مصر ، مثلما كان الحال فى أيـام الفراعنة •

ومن الملاحظ أن كتب ابن اياس ، يشتم فيها هذه الحساسـية

الحضارية ، بدليل أسمائها (١) غير العادية ، التى أشهرها كتابه : تاريخ مصر ، المشهور : ببدائع الزهور فى وقائع الدهور . وربما يكون قصده من هذا العنوان تشبيه الحياة الانسانية بالزهور ، التى تنمو ثم تذبل، فهذا شأن الحضارة أيضا، بمجيئها وذهابها، وتقدمها وتدهورها. ومن ناحية أخرى ، كان لاهتمام ابن اياس بالتعبيرات الحضارية أن أسلوبه أصبح مبسطا للغاية ، فكل كلمة لها مدلولها ، وذلك على عكس مؤرخين كثيرين فى عصره ، كانوا يميلون الى الأسلوب الانشائى .

ومن المؤكد أن ابن اياس كان على علم تام بالمصطلحات الحضارية فى أيام المماليك ، حتى ملأ كتابه : « بدائع الزهور » بها ، وهى مصطلحات عربية وفارسية وتركية ، تشتمل على نظام تنشئة المماليك فى الطباق وغيرها ، ونظم دولتهم ، ورسوم قصرهم ، فضلا عن تصوير للحياة المصرية فى عهدهم ، لانجدها الا عنده .

فيذكر ابن اياس تعبيرات اصطلاحية ، تتناول تربية المماليك فى الطباق ، مثل : تاجر المماليك ، ومعلم المماليك ، والأجلاب ، والقرانصة ، والكتابية ، والأغى ، (الأغا) ، ومعلم المعلمين ، ومقدم المماليك ، وخشداشية ، وغير ذلك .

ويذكر تعبيرات اصطلاحية ، تتناول وظائف كبار الأمراء المماليك فى الدولة والقصر ، مثل : النائب أو ما يسمى بالكفيل ، ونائب الشام، ونائب سيس ، ونائب حلب ، ونائب حماة ، وأتابك العسكر ، والأمير الكبير ، وأمير حاجب الحجاب ، والدودار ، والمهمندار ، والجمدار ، وأمير مجلس ، وأمير جندار ، والجاشنكير ، ونقيب الجيش ، والسلاحدار ، وحامل الجتر ، والجمق دار ، والعلم دار ، والسنجقدار ، والمحفدار ، والباشمقدار ، والجاويشية ، والبازدارية ، والبندقدار ،

(١) من كتبه أيضا : نشق الأزهار فى عجائب الأقطار ، ومروج الزهور فى وقائع الدهور .

والكلابزية ، والجوكاندار ، وأرباب النوبة ، وحرس الباب ، وغير ذلك .

ويذكر تعبيرات اصطلاحية ، تتناول وظائف المدنيين الكبار في الدولة المملوكية ، مثل : الوزير ، وقضاة القضاة ، والمحتسب ، وكاتب السر الشريف ، وناظر المملكة ، وناظر الجيوش المنصورة ، وناظر الخاص ، وناظر المفرد ، وناظر الكسوة ، ونقيب الأشراف ، وغير ذلك .

وفي فقرات كثيرة ، يصف ابن اياس الرسوم المملوكية في القصر ، ويرى أن الناصر محمد بن قلاوون ، هو أول من رتب المواكب في القصر المملوكي ، على الترتيب الحسن (١) الذي عرفت به ، ويعتبر أن المماليك ختموا هذه الرسوم الباهرة في العصور الوسطى ، اذ أنه بعد زوال دولتهم على يد العثمانيين ، لم تعد لحفلات الرسوم العثمانية بهجة (٢) . فقد كان المماليك يحتفلون بأعياد مصرية خالصة ، من التقاليد المصرية القديمة ، في موسم فيض النيل ، كما كانوا يحتفلون بالأعياد الاسلامية ، التي ظهرت بتحول المصريين الى الاسلام ، فضلا عن الاحتفال بأعياد قبطية ، وحتى بأعياد خاصة بهم ، اذ أن المماليك جاءوا بمؤثرات أسيوية لرسومهم ، لم تعرف من قبل في بلاط مصر .

كما يذكر تعبيرات اصطلاحية كثيرة ، تتناول تنظيم القصر المملوكي مثل : استدار العالية ، الذي يشرف على بيوت السلطان ، يساعده الخازندار الكبير والمهتار والغلمان والناظر والشاد والمستوفي والفراشون ، كما يقدم تفصيلات كثيرة عن الخوندات والستات ، ومن يعمل لهن ، وغير ذلك .

أما عن الخانات أو البيوت نفسها ، فيجرى ذكرها في كثير من الفقرات بتفصيل مذهل ، مشتملة على اصطلاحات عديدة ، كأنها البحر

---

(١) بدائع : ١ ص ١٢٣ .
(٢) نفسه : ٣ ص ١٢٧ .

الواسع ، وهي : الشراب خاناه ، والطشت خاناه ، والفراش خاناه ، والسـلاح خاناه ، والركاب خاناه ، وخـزائن الكتب ، والمطبـخ ، والاصطبلات ، والأهراء ، والشون ، والطواحين ، وغير ذلك .

وحينما يتناول الزى المملوكى ، فانه يذكر تطوره على مـدى الحكم المملوكى فى مصر ، ويقدم تعبيرات اصطلاحية كثيرة ، تتنـاول زى المماليك على مختلف مراتبهم . فمثلا عن زى السلطان ، فانه كان يلبس على رأسه عمامة صغيرة سوداء مدورة ، تسمى : التخفيفة أو الناعورة ، التى لها قرون طوال ، وتكون فى مـكان التـاج ، أو يلبس الطاقية وتسمى : الكلفتاه ، وتكون صفراء عريضة ، ولها كلاليب أى زوائد ، تتدلى منها الكراتة ، عبارة عن خرقة من شاش مزركشة ، أما على الجسد ، فيلبس « حلة الملك » أو « الكاملية » ، التى هى عبارة عن « جبة » من حرير أسود ، لها طرف مذهب ومزخرف ، وأكمـام واسعة ، ومن تحتها رداء آخر يسمى بعدة أسماء : «فرجية» أو «ازار» أو « دراعة » ، ربما أقصر من السابق . كما يلبس طوق ذهب يكون حول عنقه ، ولعله موروث من زى الفراعنة فى مصر ، وسيف مذهب فى وسطه ، اسمه : العربى أو البدوى ، وقيد ذهب يكون فى رجله ، للدلالة على أنه من المماليك ، اذ أن السـلطان لا يأنف من أصله المتواضـع .

ثم يذكر اصطلاحات خاصة بآلات الملك ، وهى الأشعرة ، مثل : نمجة الملك أى الخنجر ، والدواة ، والغاشية ، والطبـر ، والجتر ، والرقبة ، هو شريط من حرير لامع لا يرى من تراكمه بالجوهر لعنق جواد السلطان ، والأعلام ، والسلاح فى الموكب الذى يلمع كالبرق ، والمحفاة ، والسروج ، والدواب ، والطبل ، والكوسات ، والبوقات ، والنفير السلطانى المسمى برغش ، وغير ذلك .

أما عن حياة شعب مصر نفسه فى أيام المماليك ، فانه يورد قوائم

تشتمل على أسماء أساتذة المهن والحرف والصناعات والمهارات التجارية كما يتكلم عن تفاصيل أخرى كثيرة ، تتعلق بالحياة غير الرسمية بين سكان مصر ، وحتى الحياة الثقافية والدينية ، لا نجدها الا عنده • فمثلا يتكلم ابن اياس عن معامل التفريخ فى مصر ، ويسميها معمل الفروج أو بيت الترقيد ، وهى بيوت فى كل منها ألف بيضة ، ويوقد عليها بالنار ، فتحاكى نار الطبيعة فى حضانة الدجاجة ، فتخرج منها الفراريج ، ولا يعمل هذا فى بلد غير مصر ، حيث توجد معاملها فى كل بلاد مصر •

وأخيرا ، فانه مع ما زودنا به ابن اياس من كنوز الاصطلاحات الحضارية العديدة فى زمن الحكم المملوكى ، وبداية الحكم العثمانى ، التى تدل على خبرة ووعى كبير بها وبفهمها ، فاننا لا نجد له مع الأسف تاريخا وافيا لحياته (١) ، حتى نستشف منه حقيقة اهتماماته ، غير أنه كان من أسرة مملوكية ، وأنه عاش فى مصر ، وأنه عمل فى دواوين الدولة ، وأنه ولد فى ٦ من ربيع الآخر سنة ٨٥٢ هـ ٩ يونية سنة ١٤٤٨ م ، وتوفى فى حوالى سنة ٩٣٠ هـ / ١٥٢٤ م •

---

(١) بتفصيل أكثر ، انظر :
Ency. of Islam (Art. Ibn Iyâs), 2nd ed., t. III, pp. 812-813.

ابن إياس واستخدام الأسلحة النارية
في ضوء ما كتبه في كتاب بدائع الزهور

للدكتور عبد الرحمن زكي
عضو المجمع العلمي المصري

ابن اياس واستخدام الأسلحه
النارية في ضوء ما كتبه في
كتـــاب بدائـــع الزهـــور

مقـــدمة :

سنحاول كتمهيد للموضوع تقسيم تاريخ العالم الحربى الى مراحل تتميز كل مرحلة عن الأخرى بمعالم بارزة كاســـتخدام سلاح معين مستحدث أو تشكيل ناجح ٠

ففى زمن متوغل فى القدم ، لم يعلم الانسان شيئا عن صـناعة المعادن Metal-working ولذلك لم يستخدم الدروع ٠ ومن ثم أطلق على القتال فى ذلك الزمن حرب ما قبل التاريخ ٠ وحيث أننا لم نعرف بعد الكثير عن هذه الفترة ، فلا يعنى بها ٠ ويمكن القول بأن هـذه الفترة تنتهى بمعـــركة بلاتيا Plataea (٤٧٩ ق٠م) حينما طردت الجيوش الاغريقية من أوربا جيوش فارس ٠ تلك هى المرحلة الأولى ٠

١ ـ **الفترة غير المدرعة الأولى :** فترة ما قبل التاريخ الى عـام ٤٧٩ ق٠م ٠

فاذا انتقلنا من معركة بلاتيا ، لكان جندى المشاة المدرع هـو العنصر الرئيسى فى القتال حتى يصل بنا الزمن الى تدمير الفـــرقة

الرومانية Roman Legion في معركة أدريا نوبل (Adrianople) عام ٣٧٨ م وتعرف هذه الفترة بالمرحلة الثانية .

٢ ـ الفترة المدرعة الأولى (٤٧٩ ق٠م ـ ٣٧٨ م)

ثم أصبحت الفرسان (الخيالة) السلاح الرئيسى الذى يكسب المعارك ، كان عادة سلاحا خفيفا وليس متكامل الدروع (أى نصف مدرع) ــ استعان فى القتال بوساطة المقذوفات أكثر من استخدامه آلات الصدم عن قرب ، ثم نلاحظ عودة الدروع ثانية حتى يصل استعمالها الذروة في انتصار الامبراطور شارلمان في معركة بافيا (Pavia) عام ٧٧٤ م وتعرف هذه الفترة :

٣ ـ الفترة غير المدرعة الثانية (٣٧٨ م ـ ٧٧٤ م)

وابتداء من هذا الزمن يقابلنا الفارس الثقيل الدروع المسيطر على الجبهة ولكن فى خلال العصور المظلمة الوسطى البطيئة التغير تبرز قيمة المقاتل بالقوس ــ هنا القوس يزداد استخدامه كسلاح مساعد للأسلحة البيضاء (السيف ــ الرمح ــ الحربة) حتى يجد بلانيتجى (١) Plantagenets فى القوس الطويل مساعدا للدرع ، بل وتعلو عليه مكانته ، ونهاية هذه الفترة المدرعة معركة كريسى عام ١٣٤٦ م وهى عصر الفروسية فى الغرب وبعد قرابة مائة وخمسين سنة فى الشرق .

٤ ـ الفترة المدرعة الثانية (٧٧٤ م ـ ١٣٤٦ م)

وتتميز الفترة التالية بعدة نزعات ــ انها فترة الحرب الحديثة وذلك بعد كشف البارود واستخدام الأسلحة النارية والمدفع ثم ومعرفة قوة البخار ، وفى أعقابه تطور الوقود حتى تظهر الدبابة فى الحرب

---

(١) نسبة الى الأسرة المالكة التى حكمت انجلترا من عام ١١٥٤ م حتى ١٤٨٥ م .

العالمية الأولى وتطل علينا الطائرات بأنواعها . لقد تطورت الصناعة الحديثة حتى انتجت تفوقا ضخما جدا فى قوة النيران ، فيتقاتل المحاربون وهم على مسافات (مرامى) طويلة تفصل بينهم ، ولا يرى فيه الخصم عدوه سوى بالاستعانة بأجهزة علمية خاصة . ويفضل الدبابة وفى معركة كمبراى Cambrai التى استخدمت فيها الدبابة لتؤدى وظيفتها — وهنا نلاحظ أن الوقاية بوساطة المدرعات قد عادت مرة أخرى الى القتال . ويمكن تأريخ هذه الفترة :

٥ — الفترة الثالثة غير المدرعة (١٣٤٦) الى عام ١٩١٧

وأخيرا نصل الى الفترة المعاصرة وفيها تنهض العجلة المدرعة — من دبابات وأخواتها — كذراع باطش فى القتال ، وينبثق عقل الانسان عن القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ الساحقة .. وبالقتال الفظيع جوا وبرا وبحرا وتحت الماء ولا نكون مغالين وفى فضاء الكون أيضا ..

٦ — الفترة الثالثة المدرعة (١٩١٧) فى الجو والبر والبحر والفضاء

وما زلنا نعيش هذه الفترة التى غزا فيها الانسان القمر .

ومما نلاحظ بوجه عام فيما ذكرناه عن تطور القتال ، اننا لم نتكلم عما أصاب أو حدث لمبادىء الحرب التى كانت معروفة ومدروسة ويعمل بها حتى الحرب العالمية الثانية — نعم لم تذكر لأنها أصبحت غير ذات موضوع فى الثلاثين سنة الأخيرة ، وذلك لما طرأ على هذه المبادىء من تغيير وحذف وتبديل..

أتينا بهذا التمهيد لكى نتذكر معا شكل الحروب التى مرت بنا لا سيما فى منطقتنا الهامة ، منطقة الشرق الأوسط ، ونحن نشترك فى ندوة عن ابن اياس .

١ ـ المؤرخ ابن اياس المصرى

★ يعتبر عصر مؤرخنا محمد بن أحمد بن اياس المصرى (١٤٤٨ ـ ١٥٢٤ م) عصرا سادته الفروسية المملوكية فى تطورها الاخير ، وبداية عصر الأسلحة النارية والمدفع .. وسنرى أين وقفت مصر حربيا بالنسبة الى جاراتها الدول الاسلامية .

وهذه الندوة التى شرفنى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالمساهمة فيها ــ وهى دراسات شاملة عن المؤرخ العلامة ابن اياس ، أخذ فيها كل من الزملاء الأفاضل يسلط الضوء على ناحية من آراء وأسلوب ومنهج ما كتبه هذا العالم ، وصور العصر الذى عاشه ابن اياس كل منهم اختار مايرى جديرا بالدراسة . وقد وقع اختيارى على ناحية اعتدنا أن نمر بها مر الكرام دون تمحيص وعناية ، ومع ذلك فقد اجتذبت تلك الناحية صديقنا وأستاذنا الراحل المؤرخ محمد مصطفى زيادة حينما كتب مقاله القيم ، باللغة الانكليزية فى مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (١) تحت عنوان «نهاية المماليك» (١٥١٦/١٥١٧) ، فلمس فيه برفق استخدام الأسلحة النارية فى آخر أيام السلطان الغورى ، بيد أنه ترك الباب على مصراعيه لمن أراد أن يركز على دراسة أثر الأسلحة النارية فى حكم السلاطين المماليك وآثارها فى زوال ملكهم .

ففى الكتيب المفيد الذى ألفه العلامة الجليل محمد مصطفى زيادة وعنوانه « المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى (التاسع الهجرى) (٢) وخاصة فى الفصل المركز الذى عقده عن المؤرخ محمد ابن اياس (٣) ومعاصروه (ص ٤٦ ــ ٥٦) وحينما تحدث عن صلة

---

(١) Ziada, M. : The Fall of the Mamluks, 1516-1517, vol. VI, May 1941, pp. 1-36.

(٢) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٩ .

(٣) طبع كتاب ابن اياس للمرة الأولى بالقاهرة (قبل طبعة بولاق) بين السنوات ١٣٠١ ــ ١٣٠٦ هـ (١٨٨٣ ــ ١٨٨٩ م) .

هذا المؤرخ بشقيقة الزردكاش الجمالى يوسف ، استنتج الدكتـــور زيادة بأنه كان يمده بما كان يجرى بالقلعة من أخباره لا سيما أخبار المدفعية التى عنى ابن اياس بتدوينها والاشارة الى اهمالها (هكذا) على عهد الغورى (ص ٥٤) كما أشار اليها مؤرخو العصور الوسطى فى مصر ، ومنهم الدكتور عبد المنعم ماجد (١) .

وممن عاشوا مع ابن اياس حياة طويلة من عام ١٩٢٨ ـ ١٩٣٥ الى يومنا هذا صديقنا المؤرخ محمد مصطفى مع أستاذه الدكتور باول كاله، فقد نشرا سويا الأجزاء الثالث والرابع والخامس من كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ،ثم أصدر الأســتاذ محمد مصطفى بتكليف من الجمعية المصرية للدراسات التاريخية (عام ١٩٥١) ـ « صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور » قدمها بنبذة ساطعة عن ابن اياس ، فأضاف بذلك صفحات كثيرة كانت غير معروفة حتى بعد ماطبع الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق عام ١٣١١/١٣١٢ هـ (١٨٩٤ / ٩٥ م) ثم أصدر مرة ثانية طبعة جديدة اخرى صدر منها حتى اليوم أربعة أجزاء . وقد أمدتنا هذه الطبعة بنصوص كثـــيرة عن سبك المدافع واستخدام الأسلحة النارية وخاصة فى عصر الغورى على أيام ابن اياس ، وسنذكرها فى أماكنها .

وبالاضافة الى هذه الدراسات والتحقيقات ، فهناك بحث قيــم يستحق التنويه عن البارود والأسلحة النارية فى دولة المماليك » كتبه المؤرخ دافيد أيالون باللغة الانجليزية عام ١٩٥٦ ، وقد افدنا منـــه كثيرا عند كتابة هذه الدراسة (٢) .

---

(١) عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك ورســومهم فى مصر : دراســة شاملة للنظم السياسية . جـ ١ ص ١٧٢ ـ ١٧٣ ـ حينما تكلم عن صناعة الأسلحة فى عهد المماليك ـ مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٤ .

(٢) Ayalon, David : Gun Powder and Fire Arms in the Mamluk Kingdom, London, 1956.

والواقع اننا ندين بحق الى مؤخنا العالم الجليل محمد بن اياس لما أمدنا به وحده عن استعمال الأسلحة النارية فى الجيش المملوكى لاسيما خلال العصر الذى عاشه أثنـاء دولة المماليك الجراكسـة ، وبالتحديد فيما بين أواخر عصر السلطان الأشرف قايتباى ونهاية عصر السلطان قانصوه الغورى (١٥٠١ ـ ١٥١٦) وكذلك أيام خلفه السلطان طومان باى (١٥١٦ ـ ١٥١٧) وهى فى مجموعها عصور جهـاد ضد دولتين ناشئتين قويتين فى البر والبحر : واحدة منهما دولة اسـلامية فى الشمال هى دولة آل عثمان ، وثانيتهما دولة نصرانية جاءت عن طريق المحيط الهندى من الجنوب ، وهى امبراطورية البرتغال •

٢ ـ كشف البارود والمماليك

قيل الشيء الكثير عن اسم المكتشف أو المخترع الأصلى للبارود والمدفع منذ القرن الثالث عشر الى القرن التاسع عشر • حتى اتضـح أن كثيرا من الباحثين لم يدركوا حقيقة الأمر نتيجـة لخطأ فى فهـم الأسلوب اللغوى الذى كتبت به المخطوطات القديمة ومنها مخطوطة الفارس حسن نجم الدين الرماح (ت ١٢٩٥) وغيرها • وكان بين الآراء ما يرجح استخدام العرب للمدفعية قرابة عام ١٣٠٤ م سواء فى الشرق أو فى الغرب الاسلامى ، ولكن المؤكد والمعـروف أن الصليبيين فى معاركهم الكثيرة التى دامت قـرابة قرنين فى الشرق الاسلامى حتى طردهم من عكا (سنة ١٢٩٢) لم يلتقوا أثناء ذلك الصراع المرير بأى نوع من أنواع المدفعية العربية بل روعتهم النار الاغريقية •

وكان آخر ما وصل اليه علم الباحثين عن أول تاريخ قريب من الصحة عن استخدام أو اختراع المدفع هو ما بين ١٣٢٠ و ١٣٢٥ وليس قبل ذلك ، أى فى الربع الأول من القرن الرابع عشر • وقد عثر المؤرخون

على اشارات كثيرة تؤكد استخدام الأسلحة النارية عند العرب والمغاربة والانجليز ، والاسكتلنديين والألمان وغيرهم خلال الربع الثانى من القرن الرابع عشر المذكور • ففى مخطوطة انجليزية فى مكتبة «كريست تشيوس» بأوكسفورد مؤرخة فى ١٣٢٧ — رسم كروكى لمدفع على شكل قدر له فوهة ، ولم يرفق بهذا الرسم أية ايضاحات •

وبالاضافة ، فليس هناك ما يؤكد تماما استخدام المدافع فى معركة كريس Crecy (١٣٤٦) ويعتبر منتصف القرن الرابع عشر العصر الأول لظهور المدفعية بشكل عام ، فى بلدان الغرب والشرق ، ويهمنا هنا بوجه خاص النصوص العربية التى وردت فيما كتبه مؤرخونا عن المدفعية ، والنصوص الفارسية أو التركية • وسنأتى على ذكرها بعد قليل • وقد يكون من المستحسن أن نسجل هنا استخدام المدافع الثقيلة فى اسكتلندا ، وبلجيكا وتركيا وروسيا وفارس • ففى جميع هذه البلدان ثبت واضحا استخدام المدافع التى ترجع الى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل الخامس عشر •

البارود الشحنة الدافعة

وصل العلماء فى القرن الثالث عشر الى كشف المواد التى يتألف منها البارود وأنه مادة مشتعلة تحدث دويا (فرقعة) ذات لهب وشديدة الانفعال • وتأكد جميعهم أن تلك الفرقعة الناجمة قد يكون لها أثر عظيم فى فنون الحرب ، ومن هؤلاء العالم حسن الرماح لكنهم جميعا لم يتجاوزوا فى تفكيرهم هذا الحد ولم يطبقوا عمليا ما قرروه نظريا •

---

(١) فى بداية عصر المدفعية استخدمت ألفاظ كثيرة للمدفع منها Canon, gun كما فعل المؤرخون العرب الذين استخدموا كلمة مدفع ومكحلة ونفاطة •• ومكحلة النفط وغيرها •

يبقى السؤال عن اسم العالم أو المكتشف الذى حقق الخطوة التالية لمفعول هذا المخطوط المفرقع (البارود) ـ وهو القوة الدافعة (Propellant) أو الدفع الذى من أجله سمى المدفع مدفعا أى آلة الدفع •

ولم نتوصل حتى اليوم الى اسم ذلك العالم الذى توصل الى استخدام البارود (تلك الشحنة الدافعة) فى دفع المقذوف ليصل الى الهدف المرسوم ، وكانت النتيجة التى وصلت اليها أبحاث المؤرخين انه اذا كان الصينيون أو الهنود أو الفرس أو العرب أو اللاتين هم الذين كشفوا سر هذه القوة الدافعة ، فما زال اسم المكتشف الأول سرا غامضا •

صحيح أن بين هؤلاء علماء أسهموا فى الكشف عن مادة البارود وفى طليعتهم العلامة العربى حسن نجم الدين الرماح فى القرن الثالث عشر (١) (١٢٤٥ ـ ١٢٩٥) وذلك فيما أثبتوه فى رسائلهم العلمية المعروفة •

ويمكن أن نستخلص من ذلك كله أن المدافع **استعملت فى منتصف القرن الرابع عشر** أو أواخره دون أن نتأكد من اسم مخترعها الأول ، ثم أخذت تزداد حجما الى عهد السلطان محمد الفاتح حينما استعملها أثناء فتح القسطنطينية ١٤٥٣ م ، فقد قيل أن رجلا مجريا اسمه أوربان سبك له مدافع ضخمة اعانته على فتح تلك المدينة وكانت قنابلها من الحجارة الكبيرة • وبقى بعضها محفوظا بالمتاحف الحربية حتى اليوم•

وكان المدفع الضخم من مدافع الحصار ـ يطلق قنبلة من الحجر

---

(١) عبد الرحمن زكى :
Gunpowder and Arab Firearms in Middle Ages, Gladius, vol. VI, 1967, pp. 45-58.

وانظر أيضا : العرب والكشف عن البارود ـ المجمع المصرى للثقافة العلمية الكتاب السنوى الثالث والأربعون عام ١٩٧٣ ـ ص ٨٩ ـ ١٢٩ •

قطرها حوالى ثلاثين بوصة ووزنها ألف ومائتى الى ألف وثمانمائة رطل وكان كل مدفع يحتاج لجره ستين ثورا — ومائتى رجل من الأشداء يسيرون موازين للمدفع للمحافظة عليه من السقوط ويسبقهم مائتا رجل لتمهيد الطريق ودعمها • وكان لدى السلطان محمد قرابة ١٤ بطارية مدفعية تشتمل على ١٣ مدفعا ضخما و ٥٦ من الأسلحة الأصغر حجما من جميع الأنواع • وليس بخاف أن المدفعية كانت أهم عناصر الفوز التى أعانت السلطان الفاتح فى دك أسوار القسطنطينية أثناء الحصار •

٣ — المدفع والمكحلة فى مراجع اللغة والتاريخ (١)

لم يذكر العالم اللغوى محمد بن منظور (١٢٣٢ — ١٣١١) فى معجمه « لسان العرب » كلمتى المكحلة أو المدفع ، كذلك لم يذكرهما العالم أحمد بن محمد الفيومى فى معجمه « المصباح المنير » (بعد عام ١٣٦٨! وفى قول آخر عام ١٣٣٣) ، ولا الفيروزبادى فى القاموس وكانت وفاته سنة ١٤١٣ ولكن المرتضى الزبيدى (ت ١٧٩٠ بالقاهرة) شارح المحيط للفيروزبادى ذكر المكحلة وقال انها الآلة التى يضرب بها بندق الرصاص فى لغة المغاربة •

ويلاحظ أن المكاحل والمدافع ذكرت فى كتب التاريخ العربية قبل ذلك ، فقد ذكرها كثير من المؤرخين المصريين ، فمنهم مؤرخنا الجليل ابن اياس كما سنرى ، وتصادفنا كلمة مدفع فى كتاب السلوك للمقريزى، وفى موسوعة صبح الأعشى للقلقشندى (جـ ٢ ص ١٣٧) ، كما تصادفنا أيضا فى « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى • وفى كتابه الآخر حوادث الدهور •

---

(١) فى ملحق المستشرق دوزى جاء أول ذكر للمدفع كان فى عام ٧٩٢ هـ (١٣٨٣م) حينما استخدم فى مصر بمعنى canon وفيما يلى النص الذى ورد فيه :

Le mot مدفع se trouve pour la première fois, employé en Egypte pour désigner un canon.

ونلاحظ أن كلمتى مدفع ومكحلة ظلتا مستعملتين لمفهوم واحد فى المراجع العربية حتى بعد استخدام البارود ، وذلك بالاضافة الى : مكحلة النفط ، وصواعق البارود ، وصواريخ البارود ، ومكاحل البارود ، وآلات البارود ، وهندام النفط ٠

الاشارات والنصوص التاريخية

ان أقدم التواريخ لاستخدام السلاح النارى وهو عام ٧٤٣ هـ (١٣٤٢ م) يمدنا به صالح بن يحيى (الذى توفاه الله بعد عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م) صاحب كتاب تاريخ بيروت (ط ١٩٢٧ — ص١٠٥) (سطر ١٠ — ١٤) ، فيقول انه حينما حاصر المنافسون للسلطان شهاب الدين أحمد فى حصن الكرك ، ركب رجال الحامية على أسوار الحصن خمسة مجانيق ومدافع كثيرة ، ويقابلنا النص التالى وهو لمؤرخنا ابن اياس (ت ١٥٣٤) ٠ فى احداث سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) هكذا : « ثم ان الأمير بيبغا نائب قلعة دمشق (وهو نائب دمشق) فى عهد الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٥٣ هـ — ١٣٥٢ م) حصن القلعة تحصينا عظيما وركب عليها المكاحل بالمدافع(١) وهذان النصان يوضحان لنا أن استخدام المدفعية فى الدولة المملوكية الأولى (ولو على نطاق ضيق) بدأ تقريبا فى الوقت الذى استخدمت فيه فى غرب أوربا وهو بين عامى ١٣٢٥ م و ١٣٥٠ م ٠

❋ لقد أخذنا بهذين النصين أولا باعتبار كلمة « مدفع » أو « مدافع » وردت فيهما صريحة ، ومع ذلك فهناك نص آخر أقدم قليلا منهما وهو لأحمد بن يحيى بن فضل الله العمرى (ت٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م)

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، مطبعة بولاق ، ١٣١١/٣١٢ هـ ؛ جـ ١ ؛ ص ١٩٦ ، سطر ٢ — ٢ ٠

فى كتابه التعريف بالمصطلح الشريف (١) وكان انتهى من تأليفه عـام ١٣٤٠ م عن مكاحل البارود التى أطلقت البندق أو قذفت النار ، وفيما يلى النص : « مكاحل البارود أداة من أدوات القتال لا تبالى الهواء اذا أخرجت لهم خفايا سرها .. تورد القلاع منها النار ذات الوقود .. »

* ولدينا تاريخ دقيق آخر لأول استخدام المدفعية فى القاهرة . ففى ربيع الثانى سنة ٧٦٨ هـ (ديسمبر ١٣٦٦ م) أطلق الأمير يلبغـا الناصرى بالقرب من قلعة الجبل على خصومه بمكاحل النفط ــ والمؤرخ الذى أمدنا بهذا النص هو ابن خلدون الذى عاصر هذا الحادث (٢) وذكر الحادث نفسه المؤرخان : العينى والمقريزى اللذان كانا على قيد الحياة حين وقع (٣) ويؤيدهما المؤرخان أبو المحاسن بن تغرى بردى وابن اياس ــ ويتضح من أقوال هؤلاء ان الجانبين استخدما الأسلحة النارية فى صراعهما . ونلاحظ منذ ذلك الحين زيادة استخدام المدافع وكثرة ايراد أحداثها فى معارك السلاطين والأمراء وخصومهم .

والجدير بالذكر أن نسجل هنا ما كتبه الموسوعى العلامة أحمـد أبو العباس القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى ، قال حينما تحدث عن مكاحل البارود « ومنها مكاحل البارود وهى المدافع التى يرمى عنها بالنفط ، وحالها مختلف ، فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصرى الى ما يزيد على مائة رطل . وقد رأيت فى الاسكندرية فى الـدولة الأشرفية ــ الاشرف شعبان بن حسين ــ فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ــ بها مدفعا قد صنع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف

---

(١) طبعة القاهرة عام ١٣١٢ هـ ، ص ٢٠٨ سطر ١٧ ــ ٢٣ .

(٢) كتاب العبر ــ القاهرة ١٢٨٤ هـ جـ ٥ ص ٤٥٦ سطر ٢٥ ــ ٢٦ .

(٣) فى مخطوطة للعينى : تاريخ البدر فى أوصاف أهل العصر بالمتحف البريطانى مخطوطة رقم ٢٢٣٦٠ ورقة ٧٥ ــ سطر ١ ــ ٤ . وردت عبارة مكاحل النفط فى الوقت الذى ذكر المقريزى كلمة نفط .

الحديد رمى عنه من الميدان ببندقية من حديد عظيمة محماة ، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر وهي مسافة بعيدة ٠

والمعروف ان ابن‌عرام كان نائب الاسكندرية زمن السلطان شعبان في عام ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) ومن شوال ٧٦٨ هـ الى جمادى ٧٦٩ هـ (مايو ١٣٦٦ ـ يناير ١٣٦٨ م) (١) ٠

تلك هي بعض النصوص التي أوردها مشاهير مؤرخي العصر المملوكي الأول وهي كما ترى قليلة ، مما يوضح انه في الستينات وأوائل السبعينات من القرن الرابع عشر كان استخدام المدفعية محدودا جدا في مصر المملوكية والملاحظ أنه بين عامي ٧٦٨ و ٧٩١ (١٣٦٦ ـ ١٣٨٩ م) لم يذكر استخدام المدفعية سوى مرة واحدة وذلك سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م (تاريخ بيروت ص ٣٦ وص ١٨١) (٢) ٠ فلم تذكر المراجع شيئا عن المدافع مدة بين خمس عشرة سنة وعشرين ٠ وفي خلال سنتي ٧٩١ ـ ٧٩٢ هـ (١٣٨٩ ـ ١٣٩٠ م) ذكرت المدفعية أثناء المعارك الوحشية التي اشتعلت بين برقوق ويلبغا ومنطاش من أجل العرش ، كما يرد ذكرها أيضا في حصار قلعة الجبل (القاهرة) وقلعة دمشق(٣) ويزداد باطراد بعد التاريخ المذكور استخدام المدفعية حتى تصبح من الأسلحة الأكثر استعمالا في المملكة المملوكية ، وليس معنى هذا أنها كانت تستخدم على أكمل وجه ٠ ففي الواقع ظل استخدامها محدودا جدا حتى نهاية عصر السلطان قايتباي (١٤٩٦ م) ٠

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة طبعة بوبر : ليدن عام ١٩٠٩ ٠ جـ ٥ ص ٢٠٧ ـ سطر ١٣ و ص ٢١٢ ـ سطر ٥ ـ ٦ ٠

(٢) Ayalon, David : Gunpowder and Fire arms in the Mamluk Kingdom, p. 6, No. 14.

(٣) راجع ابن تغرى بردى وابن الفرات في أحداث ٧٩١ ـ ٧٩٢ هـ ٠

٤ ـ المدفعية والأسلحة النارية فى أيام السلطان الأشرف قايتباى
(٨٧٢ ـ ٩٠١ هـ / ١٤٦٨ ـ ١٤٦٩ م)

مع أن استخدام المدفعية أيام الدولة المملوكية كان ينمو بثبات منذ السنوات الختامية فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميـلادى) فقد مر وقت طويل قبل أن تحل (أى المدفعية) محل آلات الحصار التقليدية القديمة وأهمها المنجنيق ، فقد استخدم المدفع والمكحلة سنين طويلة كآلات حرب مسـاعدة للمنجنيق وهى تؤدى بعض الوظائف الصغيرة . وتمدنا المراجع العربية المملوكية بفيض من المعلومات عن أعمال التدمير قليلة الأهمية التى سببتها ضد الأهداف التى كانت توجه اليها المدافع . ومع ذلك فقد تم بعد تجارب شتى للمدفعية السـيادة العليا على الآلات القديمة . وأصبح من النادر أن تقابلنا كلمة منجنيق فى المراجع منذ النصف الثانى فى القـرن الخامس عشر ، وان بقى المنجنيق الى نهاية حكم المماليك .

وأهم ما يلاحظ أن المماليك استعملوا المدفعية فى حروب الحصار فقط (كسلاح دفاعى وهجومى) وبصفة مسـتمرة ، وظلوا يرفضون استخدامها فى ميدان القتال حتى نهاية حكمهم . وكانت مشاركة المدفعية المطردة فى أعمال الحصار أثناء حكم المماليك من ناحية، وحجبها الشامل فى الميدان من ناحية أخرى (كمدفعية ميدان) مما ينسب الى الصدف ولكن ليس الأمر كذلك ، فان سبب استعمال المدفعيـة فى أعمـال الحصار ـ يمثل فى الحقيقة فى انها لم تأت بنتائج باهرة فى ايام تاريخها المبكر ولم تمدنا بتغييرات كاسحة فى أساليب الحصار التقليدى التى كانت تقوم بها أسرة المنجنيق وتؤديها على أحسن وجه، فقد ظلت المجانيق زمنا طويلا متفوقة على الأسلحة النارية المستحدثة ، أما فى ميدان القتال فكانت الأحوال مختلفة تماما . فالمدفعية هنا كانت شيئا مستحدثا تماما، فلم يسبقها أى سلاح مثيل لها واستخدامها يتطلب احداث تغيـيرات فى التكتيك وأساليب القتال . ومعنى هذا حدوث تغيير أو ثورة فى

حكومة المماليك العسكرية لكى تختار سبيلا ــ يختلف اختــــلافا عظيما عن روح نظامها ، وهذا المسلك هو الذى اتبعه السلطان الغورى تحت ضغط الظروف •

وبمتحف طوب قابو سراى باستانبول بعض المدافع التى سبكت فى مصر ، ونقشت عليها أسماء بعض سلاطين المماليك ، ومنهم قايتباى والغورى ، وقد غنمتها الجيوش العثمانية بعد فتح مصر (١٥١٧م) كما أعادت سبك أكثرها •

★★★

كان السلطان قايتباى (١٤٦٨ ــ ١٤٩٦ م) فى مقدمة ســلاطين المماليك الجراكسة الذين اهتموا بجد بانشاء قوة عظمى لمدفعية الحصون المصرية ، ويشهد على ذلك تشييده عام ١٤٧٩ م قلعته القائمة الى اليوم فى الاسكندرية مكان فنار الاسكندرية القديم • وذلك لحماية ثغر الاسكندرية من غزوات الافرنج التى كانت تهدد الثغر ثم شحنها بالمدافع (١) • استخدم طائفة من الجند المختار (القواسة) حملة بنادق الرصاص (Arquebusiers) وكان ذلك عام ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م) حينمـا أعد حملة لرد العثمانيين عن حدود السلطنة المملوكية شمال ســورية ، ومعنى ذلك فان عصر قايتباى أدرك الأسلحة النــارية قبــل أن يقضى العثمانيون على السلطنة المملوكية بسبعة وعشرين سنة (عام ١٥١٧ م) بعد أن استخدمت أوروبا ــ المدفعية بمائة وخمســة وعشرين سنة تقريبا (٢) • ونذكر أيضا أن قايتباى قام بتفتيش وحدات من أولاد الناس (٣) وكان يتقاضى الواحد منهم شهريا قرابة ألف درهم أو أقل،

---

(١) ابن اياس : جـ ٣ ص ١٥١ (كالة ومحمد مصطفى) •

(٢) اخذت أوربا فى استخدام البندقية الضخمة (Arquebus) قرابة عام ١٣٦٥ •

(٣) أولاد الناس فرقة من فرق الجيش المملوكى شملت أبناء أمراء المماليك فقط وتعتبر من الاحتياط الحربى يدعى الى السلاح فى حالة الجهاد تحت تصرف الســلطان وفى مقابل ذلك كان لكل منهم اقطاعات أو كان يعطى ألف دينار دفعة واحدة أو مرتبـا سنويا زادت قيمته تدريجيا حتى بلغ ألف درهم فى عصر الســلطان قايتباى ، وكانت مرتباتهم تدفع لهم أيام السلم •

وكان قبل ذلك قد أمر بأن يتعلموا استخدام البندق الرصاص (Arquebus) على أحسن وجه ، وكانوا يقومون بهذه التمرينات فى حضور السلطان •

ونورد هنا النص الذى جاء فى ابن اياس عن تكوين وحدة رماة البندق الرصاص التى أعدها قايتباى لمحاربة العثمانيين عند الحدود الشمالية •

« •• وفيه عرض السلطان أولاد الناس (أرباب) الجوامك من ألف درهم الى دونه وكان أمرهم أن يتعلموا رمى البندق الرصاص قبل ذلك فلما عرضهم وأرموا قدامه كتبهم الى التجريدة ، وأنفق عليهم كل واحد ثلاثين دينارا وكل اثنين أشركهم فى جمل أعطاه لهم وخرجوا صحبة التجريدة » (١) •

وكان ذلك فى شهر صفر عام ٨٩٥ هـ (ديسمبر ١٤٨٩ أو يناير ١٤٩٠ م) وبعد قرابة ثمانية أعوام ، وفى أثناء حكم السلطان محمد بن قايتباى يقابلنا نص هام سنقرأه بعد قليل ••

٥ ـ الأسلحة النارية فى أيام السلطان الناصر أبو السعادات محمد بن قايتباى

(٩٠١ ـ ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ ـ ١٤٩٧)

(٩٠٣ ـ ٩٠٤ هـ / ١٤٩٧ ـ ١٤٩٨ م)

خلف السلطان الأشرف قايتباى ابنه الناصر محمد وهو فى الرابعة عشرة وقد حكم مرتين قصيرتين ، قتل بعدهما • وكان ميالا لاستخدام الأسلحة النارية فصمم على تكوين جماعة من رماة البندقيات الرصاص • ففى عام ١٤٩٧ جهز خمسمائة من هؤلاء بالبنادق ثم استخدمهم بنجاح ضد منافسه قانصوه خمسمائة ، وفى ظروف أخرى • وقد أطلق

---

(١) ابن اياس : جـ ٣ ص ٢٦٩ (هامش رقم ١٤) •

ابن اياس على رجال هذه الجماعة « العبيد النفطية » . ولكن لم يستطع هذا السلطان الشاب أن يواصل ما عزم عليه ، فقد قاومه الأمراء المماليك لكى يقف عند حده دون أن يقضى على مفهوم الفروسية ، وأجبروه على حل هذه الوحـــدة ، واكثر من ذلك طالبوه بأن يعدهم أن لا يعود ثانية الى تأليفها .. ومنذ ذلك التدخل والتهديد من جانب حماة الفروسية ، لم يقدم الناصر محمد على اعادة مشروعه ، الى أن اغتيل ، ثم لا يقابلنا أى ذكر لوحدة العبيد النفطية .

فلنقرأ اذن النص الذى أورده ابن اياس ، والمتصل بهذا الموضوع: « وكان عند الملك الناصر أبو السعادات محمدا عددا وافرا من العبيد ما بين نفطية ورماة بالبندق الرصاص » (١) .

وفى عام ٩٠٣ هـ (١٤٩٧ م) كان لديه قرابة خمسمائة منهم وقد أحسن استخدامهم ضد منافسه قانصوه خمسمائه ، وقد حاول هــذا السلطان أن يدعم النظام والأمن ويدعم مكانته بتدبير المسيرات فى القاهرة فكانوا يمشون أمامه ، وكان أول سلطان من المماليك يقــدم على مثل هذا العمل . يقول نص المؤرخ :

« ..وكان يركب بطبل وزمر ومكاحل وكفيــات ولم يعهد أنه تقدم ذلك لغيره »

٦ ـ المدفعية فى أيام السلطان قانصوه الغورى

(٩٠٦ ـ ٩٢٢ هـ / ١٥٠١ ـ ١٥١٦ م)

رأى السلطان قانصوه الغورى أن يضطلع بثلاثة التزامات من أجل استخدام الأسلحة النارية ، قد يكون لها اعتبارها ولكن فى حقيقة الأمر لم تكن ذات بال يذكر ، ذلك أنه لتنفيذها ، كان من الضرورى

---

(١) ابن اياس : ج ٣ (كاله ومحمد مصطفى ـ الطبعة الأولى) ص ٣٢٥ .
أطلق على هؤلاء الرماة كلمة البندقانيين (Arquebusiers) .

مراعاة شرط هام واحد ، وهـــو أن لا يمس البناء القائم للمجتمع العسكرى المملوكى ولا يجعله يخضع مطلقا لأى تغيير هام • ولا شك أن بقاء مثل هذا الوضع ــ وهو عدم المساس بالنظام المملوكى الذى يعتمد كليا على الفروسية ، مغزاه حكم بالاعدام على فكرة اعادة تنظيم الجيش المملوكى واعداده للاختبار النهائى • فانه بدون تحويل أو تغيير المجتمع المملوكى تغييرا أساسيا بجميع مفاهيمه التى يقوم من أجلها ، فسوف لا يكون أى أمل لاستخدام الأسلحة النارية استخداما مؤثرا • ليس هذا فحسب : فقد صمم الغورى ــ جنبا الى جنب قراره الخاص بالتوسع فى استخدام الأسلحة النارية ــ صمم على احيـاء أساليب القتال التقليدية عند مماليكه • فكانت لخطته تلك ثلاث نقاط رئيسية : أولاها ــ أن يزيد زيادة كبيرة عدد المدافع التى يسبكها ، وثانيتها ــ أن يجدد تمارين الفروسية ، وتدريبـات الحرب التقليدية (استخدم الرمح والسيف •• الخ) وثالثتها ــ أن يؤلف وحدة من رماة البندق الرصاص (البندقانيين) •

١ ــ سبك المدافع أيام الغورى

أمدنا ابن اياس وابن تغرى بردى وغيرهما بعدد من النصوص فى هذا الموضوع وقد ذكرنا نماذج منها • ونلاحظ أن مؤرخنا ابن اياس قد عنى عناية ملحوظة بمدافع عصر الغورى أكثر من عنايته بعصر قايتباى الكبير ، وان له الحق فى ذلك لأن هذا السلطان العظيم لم يهتم الا قليلا بالمدفعية على عكس ما فعله العثمانيون خصومه (باستثناء مدفعية الحصون) أقدم الغورى بمجرد اعتلائه العرش على سـياسة سبك المدافع بمعدل وعلى مقياس لم يسبقه فيه سلطان مملوكى من قبل • فقد أنشأ على مقربة من ميدان الفروسية الجديد (يوليو ١٥٠٣م) سبكا للمدافع (١) وصنع فيه كميات عظيمة من المدافع فى زمن قصير،

---

(١) ابن اياس : جـ ٤ ص ٢٦٠ و ص ٢٦٤ ويعرف هذا الميدان بالميدان الكبير •

وكان كلما تجمع عدد وفير منها ، أسرع بنقلها من المسبك الى حيث تربة العادل (قبة الهواء) فى الريدانية لاجراء اختبار مدى الرمى والمتانة وكان يحضر هذه التجارب السلطان الغورى (١) ومما يؤسف له ان ابن اياس كان لا يذكر فى حولياته دائما عدد المدافع التى جرى اختبارها بيد أنه ذكر عددها فى أربع مناسبات ، ففى واحدة منها ، قال ان عددها ١٥ وفى مرة ثانية ذكر سبعين مدفعا ، وفى ثالثة أربعة وسبعين ، وفى مرة رابعة ذكر خمسة وسبعين مدفعا (٢) •

وان هذا العدد الضخم من المدافع لم يكن يقصد به استخدامه كمدفعية ميدان (Field Artillery) ضد العثمانيين ، فمعظمها كان يشحن الى ثغور مصر فى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر لتدعيم الحصون الساحلية لاستخدامها على ظهر السفن الحربية وذلك لأغراض ستتضح لنا بعد •

وفضلا عن ذلك، فكان يرسل عددا كبيرا من تلك المدافع المسبوكة الى عدة أماكن هامة فى القاهرة وأهمها قلعة الجبل • وفى أثناء حكم المماليك الجراكسة كان لا يرسل سوى القليل من المدافع الى حصون الشام فى بادىء الأمر وذلك خوفا من استخدام بعض نواب السلاطين لها استخداما سيئا ضد السلطان نفسه ، بيد أن هذا الموقف تغير بعض الشىء فى أيام السلطان الغورى •

* وفى المحرم عام ٩٢٢ هـ (فبراير ١٥١٦ م) أرسل الغورى الى الاسكندرية مائتى مدفع لحماية الساحل المصرى ضد هجوم عثمانى

---

(١) فى يوم الأحد ٦ ربيع الآخر ٩١٨ هـ و١٥١٢ م نزل السلطان وتوجه الى نحو تربة العادل التى بالريدانية وجلس هناك واجتمع حوله الأمراء على المصطبة وحضر الجم الغفير من العسكر ومن الناس المتفرجين ثم جربوا قدامه مكاحل كبار وصغار التى سبكهم بالميدان فكان عدتهم سبع وخمسين مكحلة ، فلم يخطىء منهم سوى واحدة وقيل اثنان فانشرح السلطان فى ذلك اليوم (جـ ٤ طبعة ثانية ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥) •

(٢) ابن اياس : جـ ٤ ، ص ١٩١و١٩٢و٢٦٠و٢٦١و٢٧٤و٢٦٤ •

كان يهدد البلاد ، يقول ابن اياس : •• « وفيه أرسل السلطان مكاحل حديد ومدافع صوان الى ثغر الاسكندرية وتمضى فى مراكب الى هناك فكانوا نحو مائتين مكحلة ، وقد بلغه بأن ابن عثمان جهز عدة مراكب تجىء على السواحل للديار المصرية •• » (١) •

هذا عن الخطوة الأولى وهى زيادة عدد ما يجب سبكه من المدافع كما خطط السلطان الغورى ، فما الذى فعله السلطان من تجديده روح الفروسية والاكثار من التدريبات الحربية التقليدية ؟ فلننتقل الى الخطوة (الالتزام) الثانية •

٢ ـ احياء الفروسية والعناية بميادينها :

كان على عهد المماليك البحرية (١٢٥٠ ـ ١٣٨٢ م) عدة ميادين هامة للفروسية فى القاهرة وضواحيها •• ميدان الصالح نجم الدين أيوب الذى شيد عام ١٢٤٥ م على شاطىء النيل فوق أرض اللوق وقد تخلى الظاهر بيبرس عن استعمال هذا الميدان وأقام الميدان الظاهرى عند حافة اللوق ، وفى عام ١٢٦٧ م شيد ميدانا آخر بين قلعة الجبل والجبل الأحمر واطلق عليه ميدان القبق • وفى ايام السلطان النـــاصر محمد بن قلاوون لم يستخدما • وفى عام ١٢٩٥ م شيد السلطان العادل كتبغا ميدان بركة الفيل ثم هدمه السلطان الناصر بدوره لكى يقيم ميادين جديدة أخرى تسجل اسمه • فانه بعد توليته الملك للمـــرة الثالثة شيد فيما بين ١٣١٢ م بين القاهرة والفسطاط ـ الميدان المشهور الذى أسماه الميدان الناصرى أو الميـــــدان الكبير الناصرى وقد ظل مستعملا حتى أيام السلطان برقوق (١٣٨٢ ـ ١٣٩٨ م) ثم آل تدريجيا الى الخراب فأصلحه السلطان المؤيد شيخ (١٤١٢ ـ ١٤٣١ م) بعدما أدخل لعب الكرة • وفى عام ١٣٢٥ م أتم السلطان الناصر محمد ميدان

---

(١) ابن اياس : ج ٤ ص ١٢ ، سطر ٢٠ ـ ٢٢ •

سرياقوس وظل مستعملا حتى عام ١٣٩٦ م حينما استفحل الموقف بين السلطان برقوق ومماليكه .. ومنذ ذلك الحين أصيبت الفروسية بنكسة مما أثر على حالة ميادينها أيضا ، ومن ثم انحطت أحوال الجيش المملوكى الذى يعتمد اعتمادا كليا على الفروسية .

هكذا كانت أحوال الفروسية وميادين تدريبها حينما تولى الحكم السلطان الغورى وفى اطار خطته الكبرى لتدعيم قوة البلاد الحربية ، عمل فى الحال على احياء تداريب الفروسية ليعيدها الى ما كانت عليه من قبل .. بالاضافة الى عنايته بالمدفعية كما رأينا .

* ففى صفر عام ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ م) بدأ الغورى فى اقامة الميدان الكبير (١) ومنذ ذلك التاريخ أصبح الميدان مرة أخرى من أهم المواطن الرئيسية فى حياة المجتمع المملوكى . فكانت تجرى فيه تمرينات الفروسية بنشاط وبحماسة عظمى وأصبح الميدان محور أحاديث القوم واهتمامهم ، ومن كان يحضر الى مصر من رجال البعوث الأجنبية والشرقية الذين كانوا يستدعون لمشاهدة العاب الفرسان وكما يقول ابن اياس .. « حتى يريهم فروسية عسكر مصر » وفى قولة أخرى : « حتى تعجب القصاد من ذلك » وقال ابن اياس عن واحد من القصاد العثمانيين انه أصيب بالحيرة وكاد يرتبك مما شاهده ، حتى تحير من ذلك وتعجب غاية العجب (٢) وهكذا استطاع الغورى أن يبث الرهبة والاحترام فى قلوب جيرانه ومنهم العاهل العثمانى .

وبينما كان يحتفل بتدريبات الفروسية أمام الجماهير أثناء مواكب الحكومة ، كان من النادر أن يأمر السلطان بتأدية تمرينات الأسلحة النارية .. ربما حدث مرة أن أمر السلطان الغورى بأن تزين القلعة عند

---

(١) ابن اياس : جـ ٤ ص ٥٦ ـ سطر ٣ ـ ١٩ ، وفيه وصف شامل لميدان الغورى .

(٢) ابن اياس : جـ ٤ ص ٣٩١ ـ سطر ١٤ .

باب الزردخانة بالصناجق السلطانية وآلة السلاح ، وأن تصف المكاحل الكبار على باب الزردخانة .. »

ولعل القارىء يدرك الآن أنه بينما كان الغورى يولى الاهتمام باستعمال الأسلحة النارية فى صفوف الجيش المملوكى أو فى فرق خاصة بها فانه كان يعمل فى الوقت نفسه على الحفاظ على روح الفروسية ونظمها المتغلغلة فى نفوس المماليك لأن الفروسية كانت أساس المجتمع الحربى فى مصر وأهم عناصر الجهاد .

٣ ـ تكوين وحدات الرماة بالبندقيات (البندقانيين) :

تقابلنا كلمتى بندقيات الرصاص لأول مرة فى مراجع ابن اياس وابن زنبل، وابن الطولونى (ت١٥١٧ م) وهذان الأخيران توفيا بعد مرور عقدين تقريبا على وفاة ابن اياس (ت ١٥٢٤م) . ويمكن القول على وجه العموم ان كراهية المماليك لاستخدام البندقيات (الأسلحة النارية المحمولة) كان أكثر وضوحا من ترددهم فى استخدام المدفعية الميدانية . ذلك لأن المدفعية قطـاع عمل للتكنولوجيين المتخصصين والذين لا تؤلف أعدادهم سوى جزء صغير من القوة المقاتلة ، ولا يتطلب وجودهم سوى تغيير قليل فى بنية الجيش . أما البندقية فهى من ناحية أخرى سلاح شخصى وجماعى أى يحمله الشخص وتستعمله أيضا الجماعة . واستخدام الأسلحة النارية ذو صلة مؤثرة جدا لعدد كبير من المقاتلين . ولذلك كان استعمال السلاح النارى بمقياس كبير لابد أن يحدث تغييرات بعيدة المدى فى التنظيم القتالى وأساليب الحرب . فلكى نسلح الجندى (المملوكى) بالبندقية يتطلب من رؤسائه أن يجردوه من القوس والرمح أو السيف ، وكان هذا التجريد عملية لا يقبلها أو يستسيغها الفارس المملوكى .. اذ كيف نحـرمه أولا من سـلاحه التقليدى ثم نأمره بأن يتخـلى عن فرسه فينحط قدره ، ويقـاتل

على قدميه كجندى المشاه المضطر الى السير • وكيف تسمح نفسه اذا نقلناه مع غيره فى عربة تجرها الثيران ••

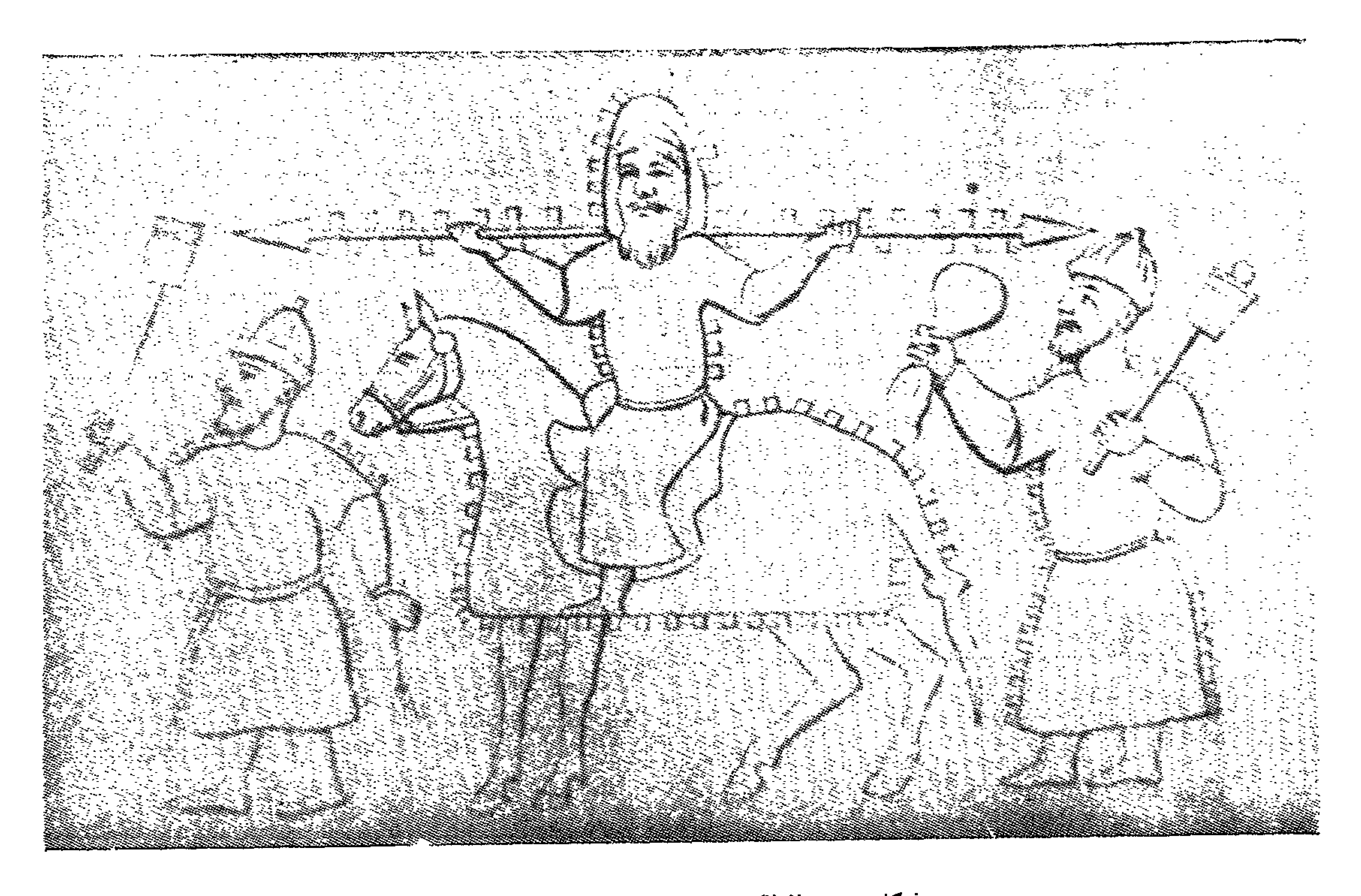
لذلك فان أية محاولة فى سبيل استعمال البندقية على نطاق كبير كان لابد أن ترتكز على استخدام أفراد ليسوا من المماليك أو عناصر تنتمى الى طبقات أقل شأنا وقدرا فى النظام الحربى • وهذا هو ما أجبر عليه السلاطين المماليك من البداية لكى لا يدمروا النظام الذى تنهض عليه الفروسية المملوكية القائمة فى البلاد منذ نهاية عصر الأيوبيين •

لقد مرت بنا فى الصفحات السابقة مناسبات استخدام وحدات من رماة البندق الرصاص على أيام السلطان قايتباى وابنه الصبى محمد، ورأينا معارضة المماليك لهذا الأخير ومقاومتهم لمحاولته الجادة فى استخدام الأسلحة النارية كما استخدمتها بلدان أخرى وهانحن الآن أمام ما أقدم عليه السلطان الغورى ، وهو دون جدال شخصية وقورة وحاكم عريق يدرك ماسوف يجره على نفسه من المصائب اذا لم يتأن فيما عزم عمله من تنفيذ مشروعه الخطير ، فى حين يتهدده الخطر العثمانى من الشمال من عدو قوى يدرك جيدا معنى استخدام السلاح الحديث•

فبعد اثنتى عشرة سنة مرت على اغتيال الصبى محمد ابى السعادات ، نهض قانصوه الغورى ، السلطان العظيم القدر ، وبحذر وحرص شديدين ، وللمرة الثانية لتنفيذ محاولة من أجل انشاء وحدة لرماة البندق الرصاص (١) وكان ذلك عام ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) بعد مضى سبعة وعشرين سنة على بداية استخدام البندق الرصاص فى أيام قايتباى الكبير ، لم يكن لدى الجيش المملوكى وحدة خاصة مميزة

---

(١) فيما بين أيام الناصر محمد أبى السعادات وتاريخ قيام الوحدة الخاصة ببنادق الرصاص التى أنشأها قانصوه الغورى يمدنا ابن اياس بنصوص كثيرة عن هؤلاء البندقانيين (جـ ٣ ـ كاله ومصطفى ، ص ٤٤٩ وص ٤٥٥ ـ جـ ٤ ص ٨٤ ص ١١ ـ ١٦ الخ) •



شكل (١) ثلاثة من العرب يحملون أدوات النفط

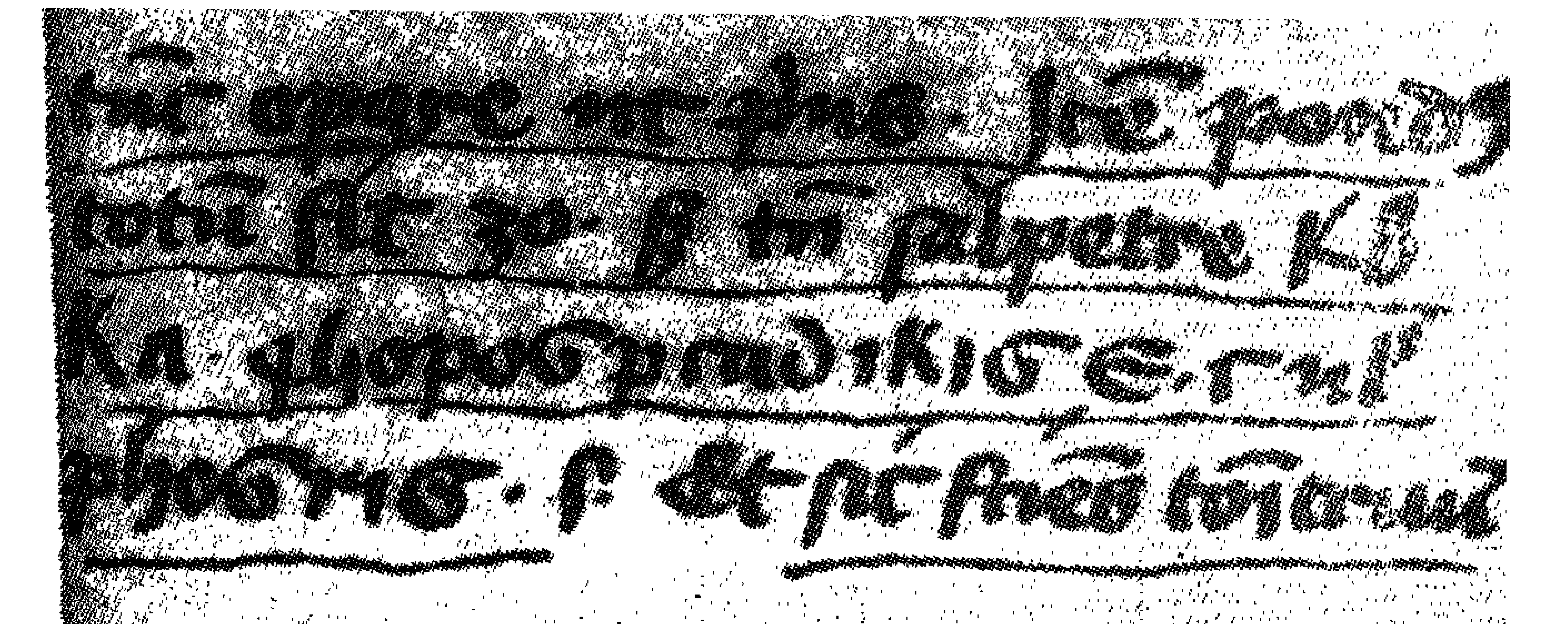
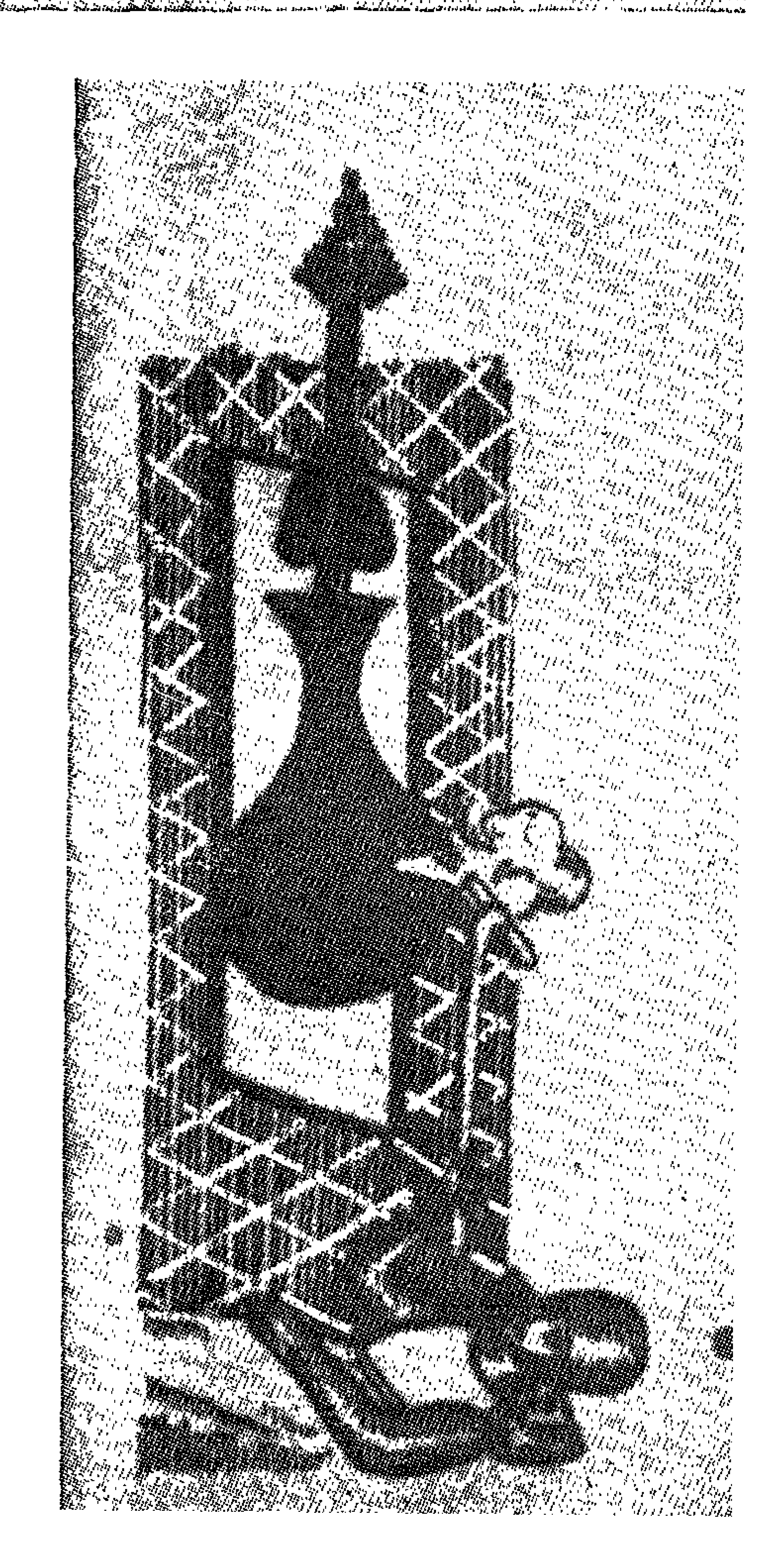


FIG. 6.—ROGER BACON'S GUNPOWDER ANAGRAM
(British Museum, Sloane MS. 2156)

شكل (٢)

قاعدة البارود الطلسمية التى وضعها الفيلسوف روجر بيكون فى المتحف البريطانى



شكل (٣)

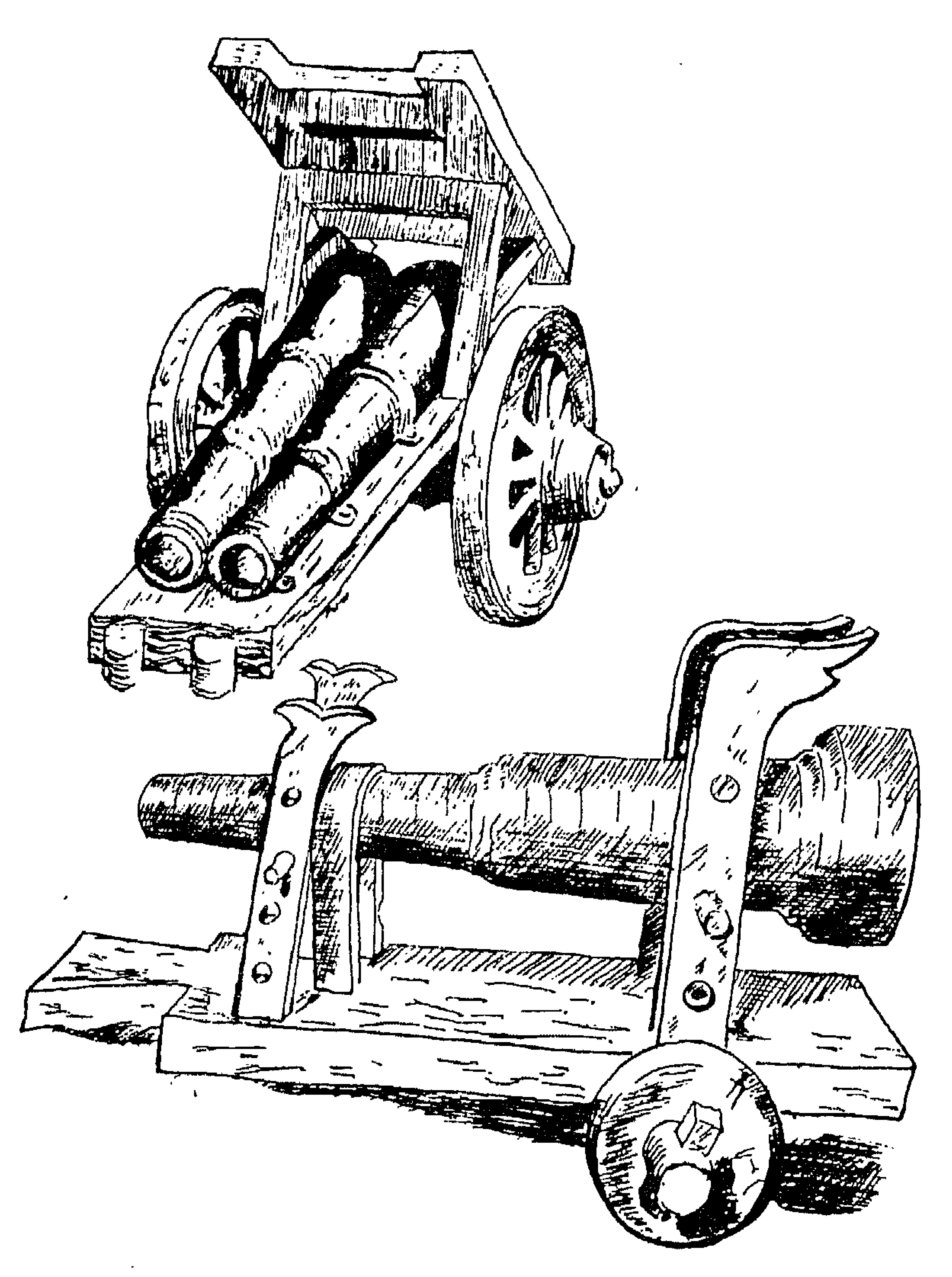
اقدم أشكال المدفع (المكحلة) فى مخطوطة لاتينية تاريخها ١٣٢٧ م· (كريست تشيرش باكسفورد)



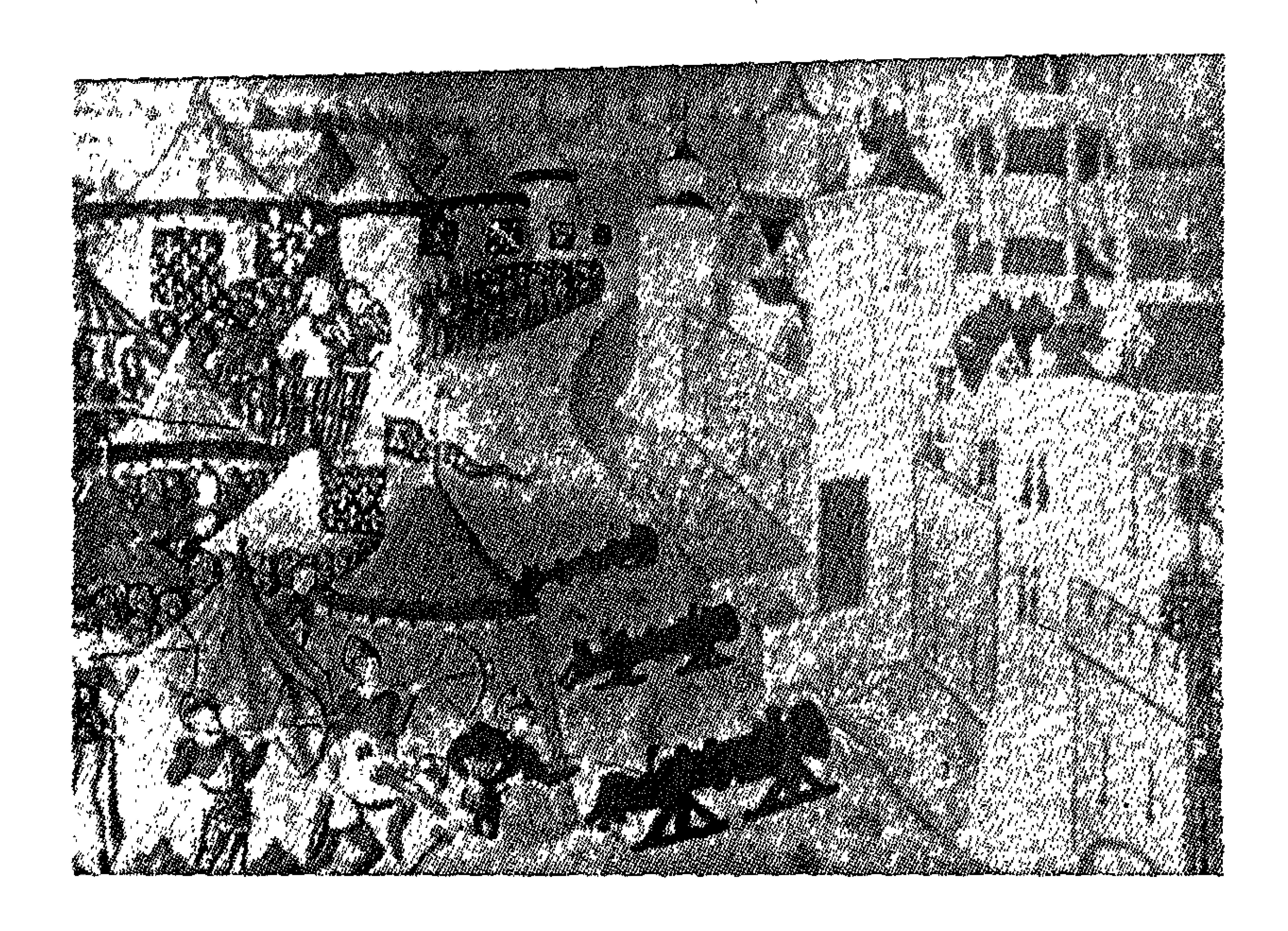
شكل ٤ (أ) مدفع فى معركة كريسى (١٣٤٦)



شكل ٤ (ب) مدفع حصار فى القرن الرابع عشر



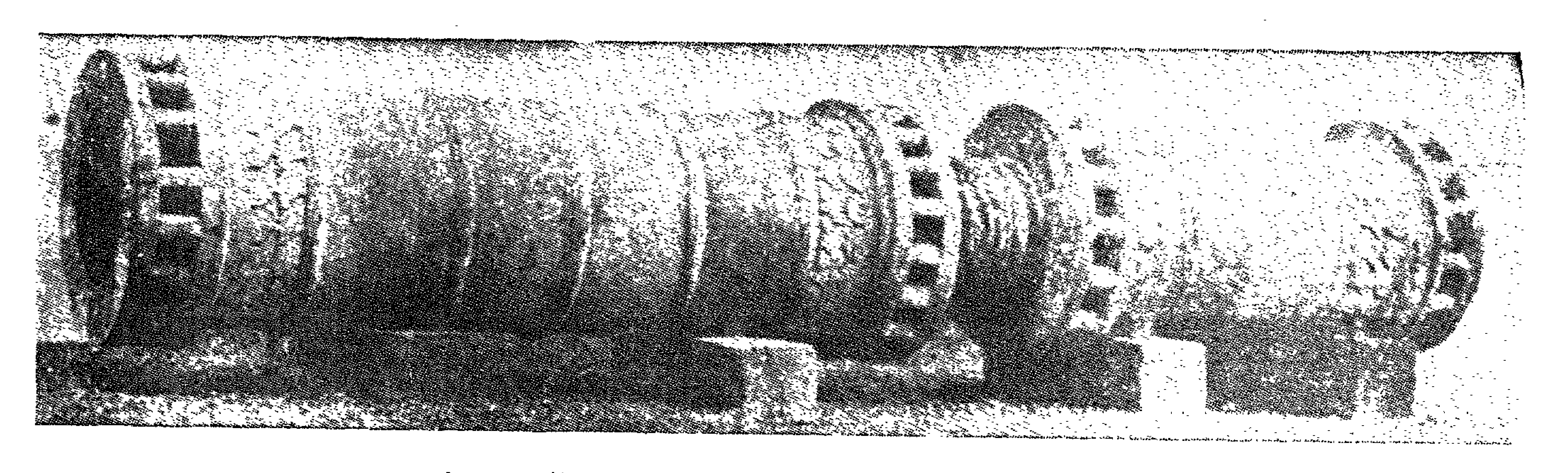
شكل (٥) أعلى : مدفعا حصار محملان على عربة وخلفهما دروة ـ القرن ١٥
أسفل : مدفع حصار من الحديد محمل على عجلة ـ عام ١٣٨٠



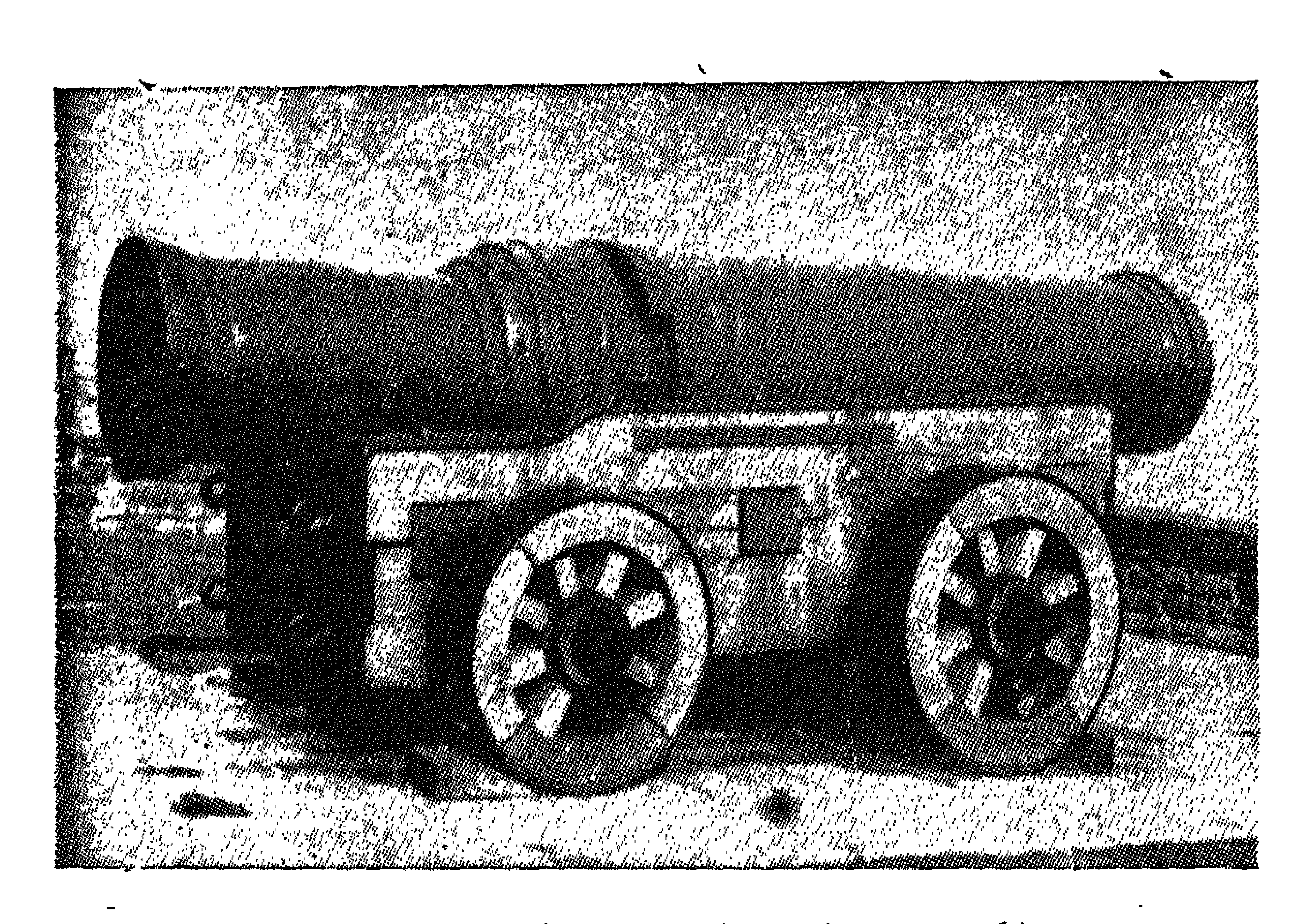
شكل (٦) : ثلاثة مدافع في حصار مدينة عثمانية في القرن الخامس عشر



شكل (٧) المدفعية في حصار العثمانيين للقسطنطينية (١٤٥٢/١٤٥٣)



شكل (٨) : المدفع الضخم الذى استخدمه السلطان محمد الفاتح عند فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ - والمدفع اليوم فى برج لندن



شكل (٩) : مدفع من الحديـد بريطانى صنع فى القرن الخامس عشر طول ماسورته ١٤ قدما وأربع بوصات وقطرها قدم وثمانى بوصات ويعرف باسم مونس ميج

باسم خاص ومرت السنون حتى جاء الوقت المناسب لاعلان وجودها سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) وكان انشاؤها محفوفا بالخطر ، تؤلف ثم تسرح وهكذا بين الحفاظ والالغاء . وعلى أية حـــال ـــ فلم يكن للأسلحة النارية المملوكية وجود فى معركة مرج دابق .

أطلق على هذه الوحدة « الطبقة الخامسة » واسمها هذا هـــو المؤشر الحقيقى لمكانها فى النظام المملوكى الحربى ، فما معنى هـــذه التسمية .

اعتاد المماليك صرف جامكياتهم حسب سكنهم فى طباقهم بالقلعة وكان عددها اثنى عشرة طبقة وكانت تصرف الجـــامكية قرابة نصف الشهر موزعة على أربعة أيام . فكل مجموعة من الطباق لها يوم محدد لاستلام جامكياتهم (مرتباتهم) ولذلك خصص يوم خامس لتـــوزيع جامكيات وحدة البنادق لا يشاركهم فيه أحـــــد من مماليك الطبقات الأربعة الأخرى وكان هذا اليوم هو الأخير فى كل شهر ، أو الاول من الشهر التالى . ومع ذلك فبمجرد انشاء الطبقة الخامسة ، لم يعد يشير اليها واحد من المؤرخين بهذا الاسم وكانوا يقتصرون على ذكر«الطبقة» أو الذين يتسلمون الجامكية الخامسة . وقد ذكرت هذه الطبقة للمرة الأولى فى شوال عام ٩١٦ هـ (يناير ١٥١١ م) . يقول ابن اياس (١):

... « وفيه أنفق السلطان الجامكية الخامسة التى استجدها بسبب المماليك الذين استجدهم ما بين تراكمة وأعجام وأولاد ناس وغير ذلك من الطوائف ، فجعل لهم جامكية خامسة تصرف لهم على انفراد دون جوامك العسكر .. وقد تزايد أمر هذه المماليك الأراذل الذين صار يستكثر منهم فى الديوان .. ففيهم من لا يعرف يجذب القوس ولا يمسك الرمح . وهذا أمر عجيب »

---

(١) بدائع الزهور : جـ ٤ ص ٢٠٠ سـطر ١٦ ـ ١٨ وص ٢٠٦ سـطر ٣ ـ ٨ وجـ ٤ ص ٢٠٦ سطر ٣ ـ ٨ وص ٢٦٠ سطر ١٤ ـ ١٥ وص ٢٦٩ سطر ٢١ ـ ٢٢ وص ٢٨١ سطر ١٨ ـ ١٩ .

وقد عرفت أيضا هذه الطبقة الخامسة باسم آخر وهو « العسكر الملفق » وذلك لتكوين الوحدة من عناصر كثير كالتراكمة والأعجام وغيرهم ، كما رأينا فى النص الذى ذكرناه .

* ونلاحظ أنه فى ربيع الأول ٩١٩ هـ (أغسطس ١٥١٣م) أى بعد مرور عامين ونصف على انشاء وحدة البندق ــ سميت للمرة الأولى بالطبقة الخامسة (١) ــ واستمرت تلك التسمية فيما كتبه عنها ابن اياس ، حتى رأى السلطان قانصوه الغورى أن يلحق تلك الوحدة بالطباق الأربعة الموجودة ويلغى الطبقة الخامسة وهكذا انتظم صرف الجامكيات كما يقول ابن اياس (٢) :

... « وفى سادس شهره انفق السلطان الجامكية على العسكر وفى هذا الشهر حسن ببال السلطان أن يضيف الطبقة الخامسة التى جددها .. فوزع ذلك العسكر على الطباق الأربعة كما كانوا فى الأول وأبطل أمر الطبقة الخامسة وصار العسكر شيئا واحدا من تفرقة الجامكية .. فما هو سبب تغيير السلطان رأيه فى انشاء هذه الطبقة فسرحها ، مع حاجة العصر الى ابقائها ؟.

والواقع أن السلطان أراد أن يجيد لعب دوره ، فأذعن للسادة المماليك الذين زاولوا الضغط عليه لكى لا يهتز نظام الفروسية الأمثل فى نظرهم ولم يدركوا بعد أن العالم حولهم قد تغير وأن هنالك جديدا فى التطور الحربى ، وفضلوا أن يلتزموا بأساليب الجهاد التقليدية دون أن يحيدوا عنها .. ألم يجاهد العرب الأول ويقاتلوا متمسكين بقواعد الحرب التى وجدوها .. اذن ، فليبق القديم على قدمه ، ولا شىء سوى الفروسية .

وافق السلطان مضطرا . أما أوامره بالالغاء فجاءت جبرا على

---

(١) جـ ٤ ص ٣٠٩ سطر ٣ ــ ٩ وجـ ٤ ص ٣٢٤ سطر ٨ ــ ١٣ وص٣٣١ وص٣٣٧.
(٢) ابن اياس : جـ ٤ ص ٣٦٠ سطر ٢ ــ ٦ .

ورق فقط ، كان ذلك فى شهر المحرم ٩٢٠ هـ (مارس ١٥١٤ م) أى رسميا بعد ثلاث سنوات من قيام تلك الوحدة. وحقيقة الأمر أن «الطبقة الخامسة » ظلت تؤدى واجبها دون تسريحها لأن الحاجة كانت ماسة جدا الى العمل فى جبهة قتال حيوية أخرى وهى جبهة قتال البرتغاليين ـ الصليبيين الجدد فى المحيط الهندى وفى البحر الأحمر .. وهكذا وجدت وحدة رماة البندق لتبقى ولتقاتل البرتغاليين خارج مصر وفى أعالى البحـار .

٧ ـ مصر والبرتغال والأسلحة النارية

كانت مصر منذ القدم وبخاصة فى العصور الوسطى ، المعبـر التجارى بين الهند والغرب ولهذا ازدادت الصـلات توثيقا بينهما . واستمر هذا الوضع قائما الى زمن الأشرف الغورى .

الا أن البرتغاليين والمستكشفين الافرنج ، كانوا قد طوفوا حول السواحل الافريقية فعرفوا طريق رأس الرجاء الصالح فى جنـوب القارة الى بلاد الهند ، وأخذت هذه الطريق الجديدة تنافس طـريق البحر الأحمر الى مصر ، كما شرع البرتغاليون المهرة يتعقبون السـلع الهندية والمصرية فى سواحل الجنوب العربى والمحيط الهندى وينشرون نفوذهم قسرا على تلك الجهات وغرب الهند .. ومن هنا كان اهتمـام السلطان الغورى ، فنشط الى مكافحة هؤلاء المنافسين الجدد وساعده على ذلك أن بعض ملوك الهند بعثوا له يكشفون كثيرا من أعمـال هؤلاء الغزاة ، وأخبروه عمن يصحبونهم من الجنـود ليغزو أوطان المسلمين ، ومن الرهبان للتبشير بالمسيحية وللقضاء على المسلمين فى غرب الهند وشرق افريقيا والخليج العربى . وفى الواقع كان عمـل البرتغاليين مكملا لحملة صليبية أخرى ، ومقدمة مشـئومة لاستعمار الشرق الاسلامى ونهب خيراته وحرمان مصر من موردها الاقتصـادى الهـام .

وأخذ الغورى يواجه الخطر الجديد ويكافحه ، فأعد حملة حربية بقيادة الأمير حسين الكردى ، جمع رجالها من عناصر اسلامية منوعة ، ووكل قيادة المغاربة وحدهم الى نور الدين على المسلاتى المغربى ، ثم أبحرت الحملة المصرية من السويس الى جدة فى جمادى الآخرة عام ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) ، وما أن بلغت ينبع حتى اصطدمت فى معركة طاحنة مع يحيى بن سبع أمير ينبع الثائر على السلطان ، فهزمته فولى هاربا .

اتخذت الحملة مدينة جدة قاعدة لها ، فشرع رجالها فى بناء الأسوار والأبراج لحمايتها وأخذوا فى مراقبة الطريق الى الهند وتفتيشه وتعقب البرتغاليين ومقاومتهم اذا لزم الأمر ، وكانوا قد تسللوا الى سواحل البحر الأحمر ليقطعوا الطريق بين مصر والهند حتى اضطربت التجارة بينهما .

ومن سوء الحظ أن على المسلاتى المغربى كان ينافس الأمير حسين الكردى قائد عام الحملة ، فأدى ذلك الى التنازع ، فعوقت الحملة عن بلوغ أهدافها بعض الوقت . ومن أجل ذلك أرسل الغورى اليهما أحد رجاله بتعاليمه وبعدد من الجند ، فقبض على المسلاتى ، وأعاده الى القاهرة مقيدا . ومضى الكردى فى قتال البرتغاليين حتى انتصر عليهم فى عام ٩١٤ هـ (١٥٠٨ م) انتصارا عظيما وغنم منهم كثيرا .

وكان الأسطول البرتغالى فى أثناء تغلغله فى المحيط الهندى واستيلائه على بعض الموانئ والجزر القريبة من الشواطئ الأسيوية والأفريقية (١٤٩٨ ــ ١٥٠٧ م) قد استولى بقيادة البوكرك على جزيرة سقطرى ، وبدأ البرتغاليون يستخدمونها مركزا للتموين وليتمكنوا بوساطتها من منع دخول أى سفن أخرى الى خليج عدن . ثمَ اتجهت بعض سفن الأسطول الى مدخل الخليج العربى وخربت بعض الأماكن: قريات ، مسقط ، خور فكان من ممتلكات مملكة هرمز واستولت على هرمز ، وشغل البرتغاليون بعد ذلك بدعم حاميتهم على شاطئ الهند،

فقبضوا على مرور المنتجات الهندية الى بلاد الشرق الوسيط وبذلك تأزمت الأحوال التجارية فى مصر (١) •

كان رد الفعل على ذلك أن اتفق السلطان الغورى ومحمود بجرها سلطان جوجرات وبعض الحكام المسلمين المحليين المجاورين، وساموری حاكم كلكتا الهندوكى — على اعداد أسطول فى السويس وارساله الى شواطىء الهند لتنضم اليه بعض السفن الهندية وذلك لتحطيم الأسطول البرتغالى ، وتقدم فى الوقت نفسه سلطان جوجرات للمطالبة بالمدافع القديمة لرد الاعتداء البرتغالى كما استنجدت اليمن بمصر ، وكان فى أعقاب تلك الاتصالات أن أعدت حملة مملوكية بقيادة الأمير البحرى حسين الكردى وأبحرت على رأس الأسطول المصرى لمقاومة الأسطول البرتغالى • وقيل مغادرته جده دعم حصنا فيها لمقاومة أى إعتداء على الميناء • ثم تمكن حسين الكردى من القائه الرعب فى صدور الملاحين البرتغاليين ، وأرغمهم على الفرار فى اثر معركة بحرية فى تشاول (Chaul) جنوبى بومبـاى (١٥٠٨ م) ولكنه لقى بعد ذلك (١٥٠٩ م) هزيمة بالقرب من ديو فأسرع عائدا الى جدة ليقوى مرة أخرى حصونها ، ودعمهالمجابهة البرتغاليين الذين قدموا اليها ، ثم عاد الى القاهرة (١٥١٢ م) •

أسرع البرتغاليون فى تنفيذ سياسة التحصين وبناء القـلاع الساحلية فى عدن وديو وهرمز وجوا، وبناء الحصون الصغيرة فى كوشن وكويلون •• ولما تسلم البوكرك تعليمات دوم مانويل للاستيلاء على عدن والنفوذ الى البحر الأحمر ، قرر اخضاع عدن قبل غيرها ، وكانت حينذاك ثغرا مزدهرا ، والاستيلاء على أية ثغور أخرى قد يعود اليها المصريون فى حملة أخرى ، ولكن استعصت عليه عدن ، فعاد الى الهند دون أن يحرز أى نجاح •

---

(١) Serjeant : The Portuguese off South Arabian Coast, London.

وفى خلال عام ١٥١٣ م أخــذ البرتغاليون فى محــاصرة سواكن وأصبحت جدة فى خطر ، ولذلك عزم الغورى على تجهيز طلائع جديدة بقيادة الأمير خشقدم وكانت مزودة بالسلاح وبرماة البندق . أقامت تلك الطلائع فى جدة لمكافحة المغيرين حتى اعداد حملة أخرى بقيــادة الأمير حسين الكردى . وبينما ازداد عبث البرتغاليين ضد موانىء البحر الأحمر ، تمت سفن الحملة التى صنعت فى السويس وجهزت بالمعدات وشحنت بالملاحين المهرة وكان من بينهم جماعة من المغاربة والتركمان . وتسلم قيادة السفن الريس سلمان التركى . ثم أبحرت الحملة فى رجب سنة ٩٢١ هـ (١) .

وعزم السلطان الغورى على الاستيلاء على اليمن لتكون ملجــأ له ولرجاله فى حالة استيلاء العثمانيين على مصر ،ولاستخدامها قاعدة هجومية ضد البرتغاليين وللحد من تطور نفوذهم السياسى والاقتصادى ..ولذلك وصلت السفن المملوكيةبقيادة حسين الكردى وسلمان التركى الى قمران عام ١٥١٥ م . ولما رفض عامر بن محمد بن عبد الوهاب آخر سلاطين بنى طاهر أن يمد قواتهما بالميرة ، قرر حسين أن يبدأ الهجوم، وساعده على ذلك الزيديون من سكان الجبال الذين وعدوه بالخيل والطعام . استولى حسين على زبيد عام ١٥١٦ م ففر عامر الى تعز وترك بعض رجاله لاخضاع البلاد المجاورة . أما أمير البحر حسين فقد أبحر الى عدن وسرعان ما قدم الحكام والمشايخ خضوعهم له . أما عــدن فقد قاومت بشجاعة المدفعية المملوكية ، فانسحب الأسطول المصرى .

ومن سوء الحظ أن ثارت الأحقاد الشخصية بين الأمير حسين الكردى والريس سلمان . وصادف ذلك استشهاد السلطان الغــورى فى معركة مرج دابق فى رجب عام ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) ، فاشتد النزاع

---

(١) د. محمود رزق سليم الأشرف قانصوه الغورى . ســلسلة أعلام العــرب رقم ٥٢ : ص ١١٦ ــ ١١٩ .

بين الرجلين واعتدى الريس على الأمير حسين فقتله وغرقت سفنهم . وبعد أشهر عاد سلمان مع بقايا رجاله ومعه بعض الأسرى البرتغاليين.

٨ ـ اشارات ونصوص ابن ايمن عن المدافع في سلطنة الملك الأشرف أبى النصر طومان الثانى ٩٢٢ ـ ٩٢٣ هـ (١٥١٦ ـ ١٥١٧ م)

ننقل هنا ما جاء عن بدائع الزهور لابن اياس (جـ ٣ ص ٧٧) عن المدافع والسلاح النارى .. « وفى يوم الاثنين ثانى عشريه عام ٩٢٢ نادى السلطان للعسكر بأن يوم الثلاثاء أول النفقة ، وفيه وردت الأخبار من الهند بأن المراكب التى كان أرسلها السلطان الغورى قد غرقت بما فيها من مكاحل ومدافع وآلات السلاح وغير ذلك .

* وفى مكان آخر لابن اياس (جـ ٣ ص ٨٠ ـ ٨١) يقول :

وفى ذلك اليوم(الأحد ثالث عشر ذى القعدة عام ٩٢٢) عرض السلطان (طومان باى الثانى) بالميدان وعرض عجلة من خشب تجرها أبقار ، وفيها رماة بالبندق الرصاص .. وكانوا نحو ثلاثين عجلة أو فوق ذلك، وعرض جمالا وفوقها مكاحل ورماة يرمون بالبندق الرصاص من المكاحل فوق ظهور الجمال . وعرض طوارق خشب بسبب الرماة بالنشاب . فقوى قلب العسكر فى ذلك اليوم على القتال . وأظهر السلطان أنه يخرج بنفسه الى قتال ابن عثمان واستحث بقية الأمراء على الخروج بسرعة ..

* وفى مكان آخر من كتاب ابن اياس (جـ ٣ ص ٨٧) قال مؤرخنا :

... وفى يوم الاثنين خامس ذى الحجة ٩٢٢ دخل الأمراء والعسكر الذين توجهوا الى غزة وانكسروا من عسكر بن عثمان ..

عادوا وهم فى أنحس حال مما جرى عليهم •• حكوا عن عسكر ابن عثمان أنهم مثل الجراد المنتشر ، لا يحصى عددهم ، وأن معهم رماة بالبندق الرصاص على عجلات خشب تسحبها أبقار وجاموس فى أول العسكر ، وحكوا عنهم أشياء كثيرة من هذا النمط ••

* وفى مكان آخر من هذا المرجع النفيس (جـ ٣ ص ٨٩) قال ابن اياس •• وفى اليوم الثانى عشر ذى الحجة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) أخرج السلطان الزردخانة الشريفة التى يخرجها صحبة العسكر فجلس بالميدان وانسحبت قدامه العجلات الخشب التى كان صنعها بسبب التجريدة فكانت عدتها مائة عجلة وتسمى عند العثمانيين عربة ، وكل عربة منها يسحبها زوج أبقار ، وفيها مكحلة نحاس ترمى بالبندق الرصاص • فنزل السلطان من المقعد وركب وفى يده عصا ، وصار يرتب العجلات فى مشيها بالميدان ثم انسحب بعد العجل مائتا جمل محملة طوارق ورماح خشب ، وغير ذلك ، وقدام العجلات أربعة طبول وأربعة زمور وجماعة من النفطية (حملة البنادق) ما بين عبيد وغيرهم يرمون بالنفط قدام العجلات •• »

* وفى مكان آخر من بدائع الزهور (جـ ٣ ص ٩٢) يذكر لنا ابن اياس :

••• وفى يوم الثلاثاء العشرين من ذى الحجة ٩٢٢ ، لبس العسكر آلة السلاح وخرجوا للعرض بالريدانية بحضرة السلطان •• ثم خرج الأتابكى سودون الدوادارى وجان بردى الغزالى نائب الشام وأركماس أمير سلاح •• ولم يبق بمصر من الأمراء والعسكر الا القليل وهذه التجريدة أكثر عسكرا من التجريدة التى خرجت مع السلطان الغورى • وكان هذا السلطان (طومان باى) له عزم شديد فى عمل هذه العجلات وسبك المكاحل وعمل البندق الرصاص وجمع من الرماة مالا يحصى • وكانت للسلطان طومان باى همة عالية ومقصدجميل

ولعل الله تعالى أن ينصره على ابن عثمان •• وكان ابن عثمان باغيا على عسكر مصر ، وقد عاداهم وتعدى عليهم بغير سبب •• »

* وفي مكان آخر (جـ ٣ ص ٩٣) نقرأ لابن اياس

••• وفي يوم الخميس ثاني عشريه من ذي الحجة ٩٢٢ وردت الأخبار بأن ابن عثمان قد خرج من غزه ، وأن اوائل عسكره قد وصل الى العريش ، واشيع أن السلطان رسم بحفر خندق من سبيل علان الى الجبل الأحمر والى آخر غيطان المطرية ثم ان السلطان نصب على ذلك الخندق الطوارق (١) والمكاحل معمرة بالمدافع وصف حولها العربات الخشب التي صنعها بالقلعة كما تقدم ذكر ذلك •• وفي ذلك اليوم أشيع أن السلطان اهتم بعمل حائط يستتر بها المكاحل التي نصبها بالريدانية •• وفي يوم السبت رابع عشريه وردت الأخبار بأن عسكر ابن عثمان قد وصل الى بلبيس •• »

معركة الريدانية

* ويقابلنا في الجزء الثالث ص ٩٦ لابن اياس النبأ التالي :

••• فلما كان يوم الخميس ٢٩ ذي الحجة ٩٢٢ وقعت فيه كائنة عظيمة تذهل عند سماعها عقول أولي الألباب ، وتضل لهولها الآراء عن الصواب ، وما ذاك الا أن السلطان طومان باي لما توجه الى الريدانية ونصب بها الوطاق ، حصن الوطاق بالمكاحل والمدافع ، وصف هناك طوارق وصنع عليها تساتير من خشب وحفر خندقا من الجبل الأحمر الى غيط المطرية ، وقد تقدم القول على ذلك •

---

(١) مفردها طارقه وهي شيء كالدرع يحملها المقاتل ثم يقيمها (ينصبها) للوقاية وفي النويري : أمر السلطان بالطوارق والجفاتي (Palissades) فصنعت وجعل المرماه وراها وكان يستعملها المسلمون والصليبيون وتصنع من الخشب ، وجاء في ابن اياس قوله : (أحضر أشياء كثيرة من الخشب وشرع في عمل الطوارق وكانت الطوارق على اشكال وأحجام منوعة •

وفى اليوم المذكور (الخميس تاسع عشر ذى الحجة ٩٢٢ هـ) (٢٣ يناير ١٥١٧ م) فى الجزء الثالث (ص ٩٧) حدث :

« ••• زحف عسكر ابن عثمان ووصل اوائله الى الجبل الأحمر فلما بلغ السلطان طومان باى ذلك زعق النفير فى الوطاق ونادى السلطان للعسكر بالخروج الى قتال ابن عثمان •• وأقبل عسكر ابن عثمان كالجرادالمنتشر وهم السواد الأعظم ، فتلاقى الجيشان فى أوائل الريدانية ، فكان بين الفريقين واقعة مهولة يطول شرحها ، أعظم من الواقعة التى كانت فى مرج دابق ، فقتل من العثمانية ما لايحصى عددهم •• فلم تكن الا ساعة يسيرة حتى انكسر عسكر مصر وولى مدبرا وتمت عليهم الكسرة ، فثبت بعد الكسرة السلطان طومان باى وهو يقاتل بنفسه فى نفر قليل من العبيد الرماة والمماليك السلحدارية، فقتل من عسكر ابن عثمان ما لايحصى •• وتوجهت جماعة منهم فنهبوا كل ما كان فى الوطاق السلطانى من قماش وسلاح وخيول وجمال وأبقار وغير ذلك ، ثم نهبوا المكاحل التى كان نصبها السلطان هناك •• ونهبوا البارود الذى كان هناك ، ولم يبقوا بالوطاق شيئا لا قليلا ولا كثيرا •• »

هكذا نرى بعد قرابة شهرين من معركة مرج دابق •• ذابت مقاومة السلطان طومان باى (الثانى) فى معركة الريدانية من ضواحى شمال القاهرة فى ٢ ابريل ١٥١٧ م — فغادر السلطان قاعدة ملكه والتجأ بعيدا فى ملجأ صديق له من البدو اسمه حسن بن مرعى — وقد خانه بعد أيام ثم سلم السلطان نفسه الى العثمانيين •• ففى ١٣ ابريل ١٥١٧ م أخذ طومان باى من بولاق وسير به فى طرقات القاهرة حتى وصل الى باب زويلة ، وقف أمامها وأخبروه بحتفه والحكم عليه بالشنق •

طلب السلطان الشهيد من الجماهير المكتظة أن يقرءوا سورة الفاتحة ثلاثا — وقد اشترك معهم فى تلاوتها • وبعد الانتهاء قال

لجلاده : اعمل شغلك •• فشنق بين العويل والصياح والبكاء ، وظلت جثته معلقة على باب زويلة ثلاثة أيام ثم حملت لدفنها فى مدرسة الغورى التى كان شيدها ليكون فيها مثواه الأخير •

كان درسا قاسيا ـ فان المماليك الجراكسة لم تتطور أفكارهم ولم يسايروا مبتكرات عصرهم •• فزال ملكهم العريض وآلت دولتهم الى بنى عثمان قرابة أربعة قرون ، كانت مصر خلالها ولاية عثمانية وكانت من قبل دولة عظمى يخشى بأسها •

المؤرخ ابن زنبل الرمال

ونحن اذا قابلنا حوليات المؤرخ المصرى أحمد بن زنبل الرمال (ت ١٥٥٢ م) وهو المؤرخ الذى عاصر ابن اياس وتوفى من بعده فى أبى قير ـ لوجدناه لا يختلف كثيرا عن سابقه فى سوء حوادث الحرب المملوكية العثمانية لا سيما فيما يتصل باستخدام الأسلحة النارية عند الجانبين ، وهو يمدنا بتفصيلات وافية عن مدفعية العثمانيين ، فيقول بعد معركة مرج دابق :

قال الراوى : « كان مع السلطان سليم ثمانمائة مدفع خلى منهم مائتين فى الشام ، وجاء معه بمصر ستمائة ، منهم مائة وخمسون مدفعا كبيرا والبقية طرابزانات (مدافع أصغر) ، كان طول كل واحدة منها خمسة وعشرين شبرا ، وكان يسحب كل واحد من الصغار أربعة رءوس خيل ، وأما الكبار فكان كل واحد يسحبه ثلاثون أو أربعون من الخيل وكان كل واحد منها مكسيا بجوخ أحمر •• »

«ولما دخل مصر كان أول المدافع فى الريدانية وآخرهم فى الخانكاه، وكان عسكره كالنمل فى الوادى •• (١) •

(١) الشيخ احمد بن زنبل الرمال (٩٦٠ هـ) : آخرة المماليك ـ واقعة السلطان الغورى مع سليم الثانى تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ـ المعادى ١٩٦٢ •

وبعد : ألم يكن للمسلمين بعد الريدانية منجزات فى التـأليف عن المدافع والمدفعية ؟ نعم كان لهم •• فى فارس والهنـــد والدولة العثمانية وفى الأندلس أيضا •• فقد وصلنا « كتاب العز والرفعـة والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع » • كتبه الرئيس ابراهيم ابن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسى ، كتبه بالأعجميـة وترجمه له بالعربية ترجمان سلاطين مراكش أحمد بن قاسم بن أحمد الأندلسى •• ويرجح انه ألف هذا الكتاب فى أواخر القرن السادس عشر • ومنه نسـختان فى دار الكتب المصرية احداهمـا المخطوطة تحت رقم ٩٧ فروسية ، والتيمورية المصورة تحت رقم ٨٦ فروسـية •• وكتب عن المخطوطة ــ الأستاذ العلامة الدكتور محمد عبد الله عنان ــ نبذة مفيدة فى مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد عـام ١٩٧١ م (المجلد السادس عشر) •

ملحقان عن المدفعية المملوكية

نصوص عن تجارب المدفعية السلوكية الجركسية بين عامى ١٤٠٤و١٤٣٣م

تقابلنا فى « حوادث الدهور » لابن تغرى بردى نصوص كثيرة عن استخدام المكاحل والمدافع (١) سنختار بعضـــها ، وتبين لنا تلك النصوص تطور استخدام المدفع فى دولة المماليك الجراكسة • ففى حوادث سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م)

« وتجهز الأمير يشبك للحرب واعد بأعلى مدرسة السلطان حسن مدافع النفط والمكاحل والأسهم للرمى على الاسطبل السلطانى »

* وفى صفحة ١١٧ نلتقى فى حوادث سنة ٨١٧ هـ (١٤٠٤ م) بالنص التــالى :

« •• فاستعد شيخ لأخذ صفد وعمل ثلاثين مدفعا وعدة مكاحل ومنجنيقين ، وجمع الحجارين •• »

* وفى صفحة ٢٠٧ نقرأ فى حولدث سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٨/٩ م)

« •• واستولى السلطان على جامع صرغد ، وأصعد أصحابه فرموا من أعلى المنارة بمكاحل النفط والمدافع والأسهم الخطـائية ••؟ وفى صفحة ٢١٠ نقرأ النص الآتى ضمن أحداث سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ / ١٠ م) :

« ••• ثم طلب السلطان مكاحل النفط والمدافع من قلعة الصبيبة وصفد ودمشق •• »

---

(١) حوادث الدهور ـ طبعة المستشرق بوبر ، ج ٦ ص ١١٢ •

* وفى صفحة ٢٥٦ يقابلنا ضمن حوادث ٨١٤ هـ (١٤١١ م) النص الآتى :

« .. ثم عدد كبير من العجل تجرها الأبقار وعليها آلات الحصار من مكاحل النفط الكبار ومدافع النفط المهولة والمناجيق العظيمة ونحو ذلك .. »

وفى صفحة ٢٦٥ نقرأ ضمن أحداث ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) النص الآتى :

« ... وحصن القلعة بالمناجيق والمدافع الكبار .. »

وفى السنة نفسها فى صفحة ٣١٠ نقرأ .. فعاد الرمى من أعلى القلعة بالمدافع والسهام » .

* وفى عام ٨١٧ هـ (١٤١٤/١٥ م) ذكر ابن اياس (١) :

« .. ثم دخلت سنة سبع عشرة وثمانمائة فيها قوى عزم الملك المؤيد شيخ بأن يخرج الى الشام لسبب عصيان نوروز ، فعلق الجاليش (٢) وعرض العسكر وأنفق عليهم وخرج من القاهرة فى موكب عظيم وصحبته الخليفة المعتضد بالله داود ، والقضاة الأربعة .. فلما وصل الى دمشق وجد نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع من كل جانب فحاصره الملك المؤيد شيخ أشد ما يكون من المحاصرة ونصب حول مدينة دمشق عدة مناجيق .. »

* ثم ذكر ابن اياس أيضا (٣) فى حوادث عام ٨٢٤ هـ (١٤٣١م) النبأ التالى :

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور : جـ ٢ ص ٤ .

(٢) الجاليش راية السلطان الكبرى وهى راية فى رأسها خصلة شعر كبيرة ، وكان الجاليش يعلق على المكان الذى تدق حوله الطبول والمزامير أمام مقر السلطان ويبقى الجاليش هكذا معلقا الى أن يتحرك الجيش من مكانه ، وبعد ذلك يرفع الجاليش فى طليعة الجيش ليكون أمامه (دوزى : ملحق ــ جـ ٢ ص ٢٧) .

(٣) بدائع الزهور : جـ ٢ ص ١١ .

« تولى الملك المظفر ابو السعادات أحمد بن الملك المؤيد شيخ المحمودى الظاهرى الملك بعد أبيه فى ٩ محرم ٨٢٤ (١٤٢١ م) . كان عمره سنة وثمانية أشهر وسبعة أيام ، فجلس على سرير الملك وهو فى حجر المرضعة وأخذت الكؤوسات الكبيرة تدق فى القصر داخل القلعة فاضطرب الملك المظفر اضطرابا شديدا وأغمى عليه فحصل له فى الحال حول فى عينيه من الرجفة واستمر فى كل وقت يضطرب الى أن مات .. وثارت المماليك المؤيدية فى عهده بسبب الوظائف وخرجت نواب الشام عن الطاعة ، فذهب اليها الأتابكى الطنبغا القرشى وأخضعها ثم رأى أن يخرج هو عن الطاعة ويفوز بالشام ، فتحصن فى دمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع .

* ونلتقى فى حوادث الدهور لابن تغرى بردى مرة ثانية وفى أحداث ٨٣٦ هـ (١٤٣٢/١٤٣٣) (١) .

« .. هذا والسلطان مجتهد فى عمارة قلعة من الخشب تجاه أبراج آمد ومكاحل النفط ترمى فى كل يوم بالمدافع والمناجيق منصوبة يرمى بها أيضا على الأبراج .. »

وهكذا نلاحظ أن النصف الأول من القرن الخامس عشر سادة استخدام المدفعية فى حصون السلطنة فى سوريا كما استخدمت أيضا فى مصر بقلاعها الساحلية المستحدثة فى أيام حكم السلطان الأشرف قايتباى ، ونعنى قلعة قايتباى ، وفى البرج الذى أقامه الأمير يشبك فى طرف لسان السلسلة بالاسكندرية (٢)

---

(١) حوادث الدهور : جـ ٦ ص ٧٠٥ .

(٢) د. عبد اللطيف ابراهيم : من وثائق التاريخ العربى – وثيقة الأمير يشبك من مهدى الدوادار – ص ٣٦ – ٣٨ . مجلة جامعة القاهرة (الخرطوم) عدد ٣ سنة ١٩٧١ .

تجارب المدفعية فى أيام السلطان خوشقدم
(حكم بين ١٤٦١ ـ ١٤٦٧ م)

يذكر لنا المؤرخ ابو المحاسن بن تغرى بردى (١٤١١ ــ ١٤٦٩ م) انه كان شاهد عيان لاحدى تجارب استخدام مدفع جديد وقام بنفسه بقياس مسافة المرمى ، وأخبره السلطان خوشقدم شخصيا بعيار المدفع وزنته وجميع صفاته ، وفيما يلى نص ما ذكره أبو المحاسن .

« فى يوم الثلاثاء رابع عشره من شوال سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) رسم السلطان خوشقدم (حكم فيما بين ١٤٦١ و ١٤٦٧ م) بتصريح (بتجربة) المدفع السلطانى الذى سبكه للسلطان الأستاذ ابراهيم الحلبى بقلعة الجبل وصرخ بين يدى السلطان فى أواخر رمضان من تحت القلعة الى جهة الجبل الأحمر غير مرة ثم نقل الى ذيل الجبل الأحمر بالقرب من قبة النصر خارج القاهرة ووضع رجل المدفع نحو الجبل المذكور وفمه الى جهة خانقاه سرياقوس وصرخ هناك فى يوم الخميس تاسع هذا الشهر مرتين فى الملأ من الناس بحضرة جماعة من أمراء الألوف وأعيان الدولة . وقيس مسافة سقوط حجر المدفع المذكور فجاء أربعة آلاف ذراع وستمائة ذراع وعشرين ذراعا بالذراع الجديد وكان فى المرة الاولى التى صرخ فيها بين يدى السلطان لم يقدر أحد على قياسه لأنه كان صرخ نحو الجبل ولم تعلم مسافة سقوطه .. ولم أحضر أنا هذا القياس الثانى .. وقد سألنى السلطان أن أحرر المسافات فى الثالثة ، فقلت له لا أعلم زنة المدفع ولا زنة حجره ولا زنة بارودة، فأملى على جميع ذلك وغيره من لفظه .. فتأهبت لذلك . .الخ (١)

---

(١) ابن تغرى بردى وتحقيق المستشرق بوير : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور : جـ ٣ ص ٤٧٤ ـ ٤٧٦ ، مطبعة جامعة كاليفورنيا ، عام ١٩٣٢ .

ابن إياس
والفتح العثمانى لمصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

مؤرخان قدر لكل منهما أن يشهد فتحا من الفتوحات العثمانية المدمرة ، سقطت فى كل منهما امبراطورية مؤثلة ، وسحقت حضارة عظيمة ، هما خاتمة المؤرخين البيزنطيين ، جورجيوس فرانتزا أو فرانتريس والمؤرخ المصرى محمد بن أحمد بن اياس .

شهد أولهما فتح الترك العثمانيين لقسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ م، وما ترتب عليه من اختتام الامبراطورية الرومانية ، وسحق الحضارة البيزنطية ، وشهد ثانيهما بعد ذلك بنحو سبعين عاما ، فتح الترك العثمانيين لمصر فى سنة ١٥١٦ م وما ترتب عليه من سقوط امبراطورية السلاطين المصرية الشامخة ، وسحق الحضارة الاسلامية التى تألقت بمصر مدى قرون .

شهد فرانتزا سائر حوادث الحصار التركى لقسطنطينية ، وهو يومئذ وزير لقسطنطين باليولوجوس ، آخر القياصرة ، وشهد دخول الجند الظافرين عاصمة القياصرة ، التى أباحها لهم السلطان الفاتح محمد الثانى ، ثلاثة أيام كاملة ، ووعدهم بأن الغنائم كلها ستكون من نصيبهم

وأنه يهبهم سائر الأسرى وكنوز المال والجمال ، كما شهد ما ارتكبوه خلال ذلك ، من أعمال السفك والاغتصاب والتدمير ، وشنيع الاعتداء على الأنفس والأموال والأعراض • ودون ذلك كله فى مذكراته •
وسقط فرانتزا وأسرته أسرى فى أيدى الغزاة ، ولكنه تمكن بعدئذ من الفرار الى المورة تاركا زوجه وأولاده رهن الاسار • ثم لجأ فى أواخر حياته الى دير طارشنيوتس فى جزيرة كورفو ، وهنالك كتب تاريخه الشهير عن آل بانيولوج آخر الأسر الامبراطورية البيزنطية من سنة ١٢٥٨ الى سنة ١٤٧٦ م وضمنه سائر فظائع الفتح العثمانى ، فى صور تنفطر لها الأفئدة روعا وتأثرا ، ثم توفى سنة ١٤٧٧ ، وقد جاوز الخامسة والسبعين •

وما زالت رواية فرانتزا حتى يومنا أعظم وأوثق مصدر يرجع اليه عن حوادث الفتح العثمانى المروعة لعاصمة الدولة الشرقية •

وشهد مؤرخنا ابن اياس ، حوادث الفتح العثمانى لمصر ، بعد أن اجتاحت الجيوش العثمانية الشام وفلسطين ، وشهد القسم الأخير من المأساة ، عند دخولهم القاهرة ، وما ارتكبوه فيها من رائع السفك والتقتيل والتخريب ، ودون لنا عنها فى تاريخه ، صورا لا تقل فى روعتها عما دونه لنا فرانتزا •

كان ابن اياس خاتمة هذه المدرسة المصرية التاريخية الزاهرة ، التى افتتحها المقريزى أعظم أساتذتها بخططه وآثاره الخالدة ، والتى برز فيها أبو المحاسن بن تغرى بردى ، والسخاوى ، وبدر الدين العينى ولكن ابن اياس مع اقتفائه لتقاليد هذه المدرسة الزاهرة ، فى التوفر على كتابة تاريخ مصر ، لم يوهب كثيرا من كفايتها الباهرة ، سواء من حيث الطرافة أو الافاضة أو البيان • ولو لم يقدر لابن اياس أن يشهد حوادث الفتح العثمانى ، وأن يدونها باسهاب وافاضة ، لما كان لأثره عن تاريخ مصر ، كبير قيمة أو أهمية • ولكن رواية ابن اياس عن

الفتح العثمانى ، وهى ثمرة المتابعة والمشاهدة الشخصية تسبغ عـلى أثره قيمة كبرى •

والحقيقة أن مجهود ابن اياس التاريخى ، يتركز قبل كل شىء فى الفترة التى عاصرها ، والتى يعنى عناية خاصة بالاحاطة بتـدوين حوادثها ، ولا سيما حوادث الأعوام القلائل ، التى سبقت الفتح العثمانى، ثم حوادث الفتح ذاته ، ثم الأعوام القلائل التى تلته ، حتى وفاة المؤلف فى سنة ٩٣٠ هـ ، (١٥٢٣ م) ففى هذا النطاق تبدو أهمية مجهـود ابن اياس التاريخى ، ولا سيما على ضوء ما ظفر به البحث الحديث من نصوص جديدة ، مكملة لهذا القسم الأخـير من تاريخ ابن اياس ، المسمى « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » وكانت ساقطة فى النص المختصر ، الذى نشرته مطبعة بولاق من تاريخه • وتشمل هذه الثغرة التى كانت ساقطة من تاريخ ابن اياس ، حـوادث خمس عشرة سنة من سنة ٩٠٦ هـ الى آخر سنة ٩٢١ هـ (سنة ١٥٠٠ ــ ١٥١٦ م) وهى مدة سلطنة السلطان الغورى ، آخر ملوك مصر المستقلة • وفى هذا النص الجديد ، الذى ظهر من تاريخ ابن اياس ، والذى نشرته جمعية المستشرقين الألمانية فى مجلد ضخم ، يتناول ابن اياس عصر السلطان الغورى ، منذ بدايته باسهاب ، ويدون حوادثه شهرا فشهرا ، ويوما فيوما تقريبا ، ويتحدث عن كل ما يتعلق بالسياسة والحرب • والبلاط والحكومة ، والأمن والقضاء ، والشئون المالية والاقتصادية ، ويتتبع بالأخص علائق البلاط القاهرى بالبلاط العثمانى ، ويبدو جليا من روايته، أن بلاط القاهرة كان يشعر بأن خطر الفتح التركى لمصر ، غدا قريب الانقضاض ، ويصانع بلاط قسطنطينية ما استطاع الى ذلك سبيلا ــ وكان سلطان الترك سليم الأول من جانبه يخادع سلطان مصر ويهـاديه ويراسله ، على أن بلاط القاهرة لم يخدع ولم يطمئن ، بل كان الغورى دائب الأهبة والاستعداد • ولكن الانحلال كان يسود شئون مصر يومئذ • وكانت الثـورات الداخلية تفت فى نظمها وأهبتها • وكان

الفساد يقضم أسس نظمها العامة سواء فى الادارة أو القضاء أو تنظيم الدفاع عن البلاد • أجل لقد كانت حكومة السلاطين، بعد عصور طويلة من المجد والسلم والرخاء ، قد شاخت يومئذ ، وانحدرت الى نوع من الفتور والدعة ، وذلك بالرغم مما كان يساورها من التوجس والخوف، من خطر انسياب تلك القوة الاسلامية الجديدة الصاعدة الجارفة ــ قوة الدولة العثمانية ، وكانت الدولة العثمانية ، منذ فتح قسطنطينية، الذى كان مسرحا لتجارب سلاح المدفعية الجديد ، تعنى بتزويد جيوشها بهذا السلاح المدمر بصورة تضمن لها التفوق على أية قوة خصيمة • ولم يكن باستطاعة حكومة السلاطين ، أن تجاريها فى تلك الأهبة العسكرية العظيمة • ويتحدث ابن اياس عن مقدمات الفتح ، ويقص علينا كيف أن أميرا مصريا من الأمراء المماليك ، نقم على السلطان وفرا الى قسطنطينية ، ونقل الى سليم الأول أخبار مصر وأحوالها ، وأطلعه على مبلغ قوتها وأسرار دفاعها ، وحدثه عما يسودها من الاضطراب والضعف وقصور الأهبة والتسليح • ثم يقول : فعندئذ طمعت آمال ابن عثمان بأن يملك مصر ، والله تعالى غالب على أمره ، وهو مما يدلى بأن المجتمع القاهرى كان يشعر بدنو النكبة وانقضاضها

كانت حوادث الفتح العثمانى آخر ما دون قلم ابن اياس ، فهو يصل فى روايته حتى خاتمة سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢٢ م) بعد الفتح بنحو ستة أعوام • ونحن نعرف أن المؤرخ توفى بعد ذلك بنحو عامين فى سنة ٩٣٠ هـ ، ورواية ابن اياس عن الفتح العثمانى هى كما قدمنا أهم وأنفس ما فى أثره ، وان كان بيانه لم يسبغ عليها كل ما يجب من دقة وقوة • فهو يترك لنا عن هذه الحوادث الشهيرة الحاسمة فى تاريخ مصر وتاريخ الاسلام سجلا يوميا مسهبا ، يستند الى تحقيق المعاصرة والمشاهدة • وهو لا يمهد فيه الى الحوادث • ولا يعنى بربطها ، بل يدونها مرسلة كما وقعت ، ويحصى آثارها احصاء من رأى وسمع •

وما كان لابن اياس أن يمهد أو يكثر التعليق ، فى رواية انقلاب مفاجىء صعقت مصر لحوادثه السريعة المدهشة ، وقضت من بعده حينا بين التصديق والتكذيب ، والرجاء واليأس . وكل ما هنالك أن ابن اياس يطلق العنان لشعوره وعواطفه ، بالاستناد الى الحوادث دائما . فنراه يحمل على السفاكين والظلمة ، فى عبارات شديدة ، وأحيانا مؤثرة ، ويغتبط بمصرعهم ، ويعنى بالافاضة فى سرد فظائع الترك وجـرائم الفـاتح ، ويشيد ببطولة طومان باى ، آخر الزعمـــاء المدافعين عن استقلال مصر ضد الغزاة ، ويبكى مصرعه ومصرع أعوانه وجنده ، ويرسل عبارات التأثر والسخط ، أو الغضب أو الاشفاق كلما عن له ذلك . على أن قصور بيانه ، كثيرا ما يعجزه عن أن يسبغ على هـــذه البوادر النفسية كل ما يجب من القوة والوضوح . وهذا القصور فى البيان ، ينتقص كثيرا ، من قيمة الرواية التى تركها لنا ابن اياس عن حوادث الفتح العثمانى وهذا بعكس ما نراه فى رواية فرانتزا ، عن فظائع الترك فى قسطنطينية ، من قوة البيان وروعة التصوير . والحقيقة أن ابن اياس كان بحاجة الى بيان كبيان جيبون ، ليستطيع اخـــراج الصور التى يقدمها الينا ، فى أثوابها الرائعــــة ، وليصف لنا فظائع الغزاة فى القاهرة ، وما جنوا على الأنفس والأموال والنظم ، كما وصف جيبون بقلمه الجبار ، فظائعهم فى قسطنطينية ، وما جنوا على الحضارة البيزنطية العظيمة . من صنوف الدمار والمحو . غير أن ابن اياس لم يكن مصورا بارعا للحوادث ، ولم يكن بالأخص ناقدا قوى التعليـــل ، يقرأ فى الحوادث غير نواحيها المادية ، ولكن كثيرا من الافاضة وقليـــلا من التأمل ، وطرفا من الملاحظة القوية ، تعوض عن هذا النقص فى كثير من المواقف ، وتقدم الى النقدة مادة لا بأس بها .

وقد بينا أن مصر كانت ترتجف لشبح هذا الفتح قبل وقوعه ، وكيف أن المؤرخ كان يستشعر النكبة ولكن مصر لم تكن تتوقـــع أن يسحق استقلالها ومجدها التالد فى لمحة صاعقة . فكانت « مرج

دابق » مفاجأة مروعة ، ذهلت لها مصر وصعقت ، ويبدو أثر هذا الروع واضحا في أول صرخة تبدر من المؤرخ في ذكر النكبة اذ يقول : « وفي يوم السبت السادس عشر من شعبان أشيع خبر هذه الكائنة العظيمة، التي طمت وعمت ، وزلزلت لها الأقطار » . ولا غرو فقد خرج السلطان الغوري الى شمال الشام قاصية الحدود المصرية يومئذ ، بجيشه الزاهر ليرد عادية الغزاة عن مصر ، فكانت مرج دابق قبرا له ولحريات مصر . يقول المؤرخ : « وزال ملك الأشرف الغوري في لمح البصر ، فكأنه لم يكن ، فسبحان من لا يزول ملكه » . ويفيض بعد ذلك في تفاصيل الموقعة الهائلة التي نشبت بين الغزاة وبين الجيش المصري في « مرج دابق » في الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢ هـ (أغسطس سنة ١٥١٦ م) وما أوقعه الغزاة بمعسكر مصر من سفك ونهب ، ويصف صدى النكبة في القاهرة ، وكيف كان نعي السلطان في ذلك اليوم، ونعي الأمراء والأعيان الذين قتلوا . وصار في كل حارة وزقاق وشارع من القاهرة صراخ وبكاء .. ورجت القاهرة ، وضجت الناس ، واضطربت الأحوال ، وكثر القيل والقال . ثم يقف المؤرخ قليلا ليصف الغوري وخلاله ، ويعدد مآثره ومثالبه ، ويختتم ابن اياس حديثه عن الغوري ، وعن عصره وأعماله ، بايراد زجل طويل مؤثر لصديقه بدر الدين الزيتوني وهو من أشهر أدباء هذا العصر ، وفيه يصف النكبة ، ويرثي الغوري في مقاطيع مبكية نقتبس منها ما يأتي :

غربت شمس دولة الغوري ... وابن عثمان نجمو طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم ... والفلك دار ولم يزل داير
والعجائب في قتلة الغوري ... راح برجلو لقتلتو خاطر
وحسبنا كل الحساب الا ... ما جرى لو ما مر بالخاطر

دمعة العين مني على الغوري ... من دماها تجري لحزني عين
كان عليه ترقب زمان ملكو ... والسعادة حتى أصابوا عين

ذى العساكر شبهتها روضة ... فيها أغصان فرسان عليها زهور
واللبوس من الحديد تحكى ... ورد أحمر بين الرياض منثور
والأمارة تحكى شجر مثمر ... فى رياض نشروا غدا عاطر
والمدافع ترمى سفرجل كبار ... ول رمان يحكى من الفحول فاخر
كم اسلى قلبى على الغورى ... وأقلوا يا قلب من تفكر
كل حادث بأمر القديم راحل ... والاقامة للأول الآخر

* * *

يا للذى جا يسمع عقود نظمه ... خذ وحرر عنو بديع نقلوا
وان أتى من يطلب التاريخ ... والوقايع عن الملوك قلوا
غربت شمس دولة الغورى ... وابن عثمان نجموا طلع ساير
وبهذا رب السما قد حكم ... والفلك دار ولم يزل داير

ويتتبع ابن اياس حركات الغزاة بافاضة منذ « مرج دابق » حتى قدومهم الى القاهرة فى أواخر شهر ذى الحجة ٩٢٢ هـ (ديسمبر سنة ١٥١٦ م) ويصف أهبة السلطان طومان باى ، لمقاومة الفاتح ، بحماسة، وينوه بهمته العالية ، فى اعداد وسائل الدفاع ، ويجيد شرح الوقائع الهائلة ، التى نشبت متعاقبة بين الجيش التركى وعلى رأسه سليم الأول . وبين الجيش المصرى وعلى رأسه طومان باى والمماليك ، وكيف عبس القدر لمصر وجيشها ، فهزم طومان باى مرارا فى أنحاء القاهرة وضواحيها ، ولكنه استمر فى دفاعه جلدا مستبسلا ، حتى انفض عنه معظم أنصاره وجنده ، ففر الى الصعيد ، يجمع هناك أشتات جيشه ، وعتاده ، وقد كان من الواضح أن تفوق الترك فى السلاح ، ولا سيما فى المدفعية ، كان له أكبر الأثر فى هزائم القوات المصرية المتوالية، هذا الى سريان التفكك والفوضى ، والخيانة بين الأمراء والقادة . وكان من المتعذر بعد هزيمة مرج دابق الساحقة أن تجتمع القوات المصرية مرة أخرى ، فى جيش كثيف متماسك ، يستطيع صد الغزاة ...

وانقض الغزاة على القاهرة كالضواري المفترسة ، فأوقعوا فى سكانها السفك الذريع ، وأمعنوا فى الآمنين قتلا وعبثا وهتكا ونهبا . ودامت هذه المذبحة الهائلة أياما أربعة ، وذلك من ثامن المحرم سنة ٩٢٣ هـ (أوائل فبراير ١٥١٧ م) ويصفها ابن اياس « بالمصيبة العظمى التى لم يسمع بمثلها فيما تقدم من الزمان ، ثم يقول : « إن الجثث كانت مرمية فى الطرقات من باب زويلة الى الرميلة ومن الرميلة الى الصليبة ، الى قناطر السباع ، الى الناصرية ، الى مصر العتيقة ، ويقدر القتلى بأكثر من عشرة آلاف ويقدر من قتل من المماليك فقط بثمانمائة ، ويقدر البعض الآخر ضحايا هذه الجريمة الشائنة بخمسة وعشرين ألفا ، ولم يمض على ذلك أسابيع قلائل حتى أمر سليم الأول باعدام من بقى من الأمراء المماليك ، وكان قد احتال عليهم ، ووعدهم بالأمان حتى ظهروا ، وعددهم أربعة وخمسون أميرا وقائدا ، وقبض على نسائهم وفرضت عليهن الغرامات الفادحة . ثم كانت الموقعة الأخيرة والفاصلة فى السادس من ربيع الأول (ابريل سنة ١٥١٧ م) بين الغزاة وبين جيش طومان باى ، فان هذا الأمير الجلد الشجاع ، عاد بقواته على مقربة من الجيزة يحاول مرة أخرى انقاذ الوطن من براثن الوندال ولكن القدر ظل على عبوسه له ، فهزم للمرة الخامسة وغاض كل أمل فى انقاذ حريات مصر واستقلالها . كان طومان باى قرين قسطنطين باليولوج ، آخر القياصرة الرومان ، يكافح وحياته تهتز فى يده ، ويطلب الموت كما كان يطلبه آخر القياصرة ، ولا يشعر بأى أمل حقيقى فى دفع الغزاة . وقد ظفر الفاتح بعد ذلك بطومان باى ، وأمر باعدامه فشنق على باب زويلة ، أمام أعين ذلك الشعب الذى كان مليكه قبل ذلك بأشهر قلائل ، والذى أحبه وقدر خلاله وبطولته . ويرثيه المؤرخ فى قوله : « صرخت الناس عليه صرخة عظيمة ، وكثر عليه الحزن والأسف . وكان شجاعا بطلا ، تصدى لقتال ابن عثمان ، وثبت وقت الحرب بنفسه ، وقتك فى عسكر ابن عثمان ، وقتل منهم ما لا يحصى ،

ووقع منه فى الحرب أمور لم تقع من الأبطال العناترة .. وقاسى شدائد ومحنا ، وحروبا وشرورا وهجاجا .. ولم يسمع بمثل هذه الوقعة فيما تقدم من الزمان ، أن سلطان مصر شنق على باب زويلة قط » .

ولبث سليم الأول فى القاهرة زهاء ثمانية أشهر ، يذيق وجنده المصريين أشنع ألوان السفك والظلم والمصادرة ، ويجمع من تراث مصر وثرواتها الفنية، كل ما وصلت اليه يده، ويخرب المساجد والآثار الخالدة لينتزع منها نفائسها الفنية ، ويبعث بها الى قسطنطينية . ويقبض على أكابر مصر وزعمائها وعلمائها ، ورجال المهن والفنون فيها ، ومهـــرة الصناع والعمال ، ويحشدهم آكداسا في السفن ويبعث بهـــم الى قسطنطينية وكان فى مقدمة هؤلاء المتوكل على الله آخر خلفاء بنى عباس بمصر وأفراد أسرته وجماعة كبيرة من الأمراء والقواد والقضاة، وكان الفاتح يرمى بذلك الى غرضين : الأول تجريد مصر من أكـــابرها وزعمائها ليحطم بذلك عصبيتها ، ويقتل قواها المعنوية ، والثانى نقل تراث مصر الفنى والفكرى والصناعى ، وهو الذى تكدس بالقـــاهرة مدى قرون طويلة الى قسطنطينية . ويقول ابن اياس معلقا على ذلك: « وكانت هذه الواقعة من أشنع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها » ثم يعقد فصلا خاصا يذكر فيه أسماء كل من نفى الى قسطنطينية من أكابر مصر وأعيانها ومفكريها وفنانيها .

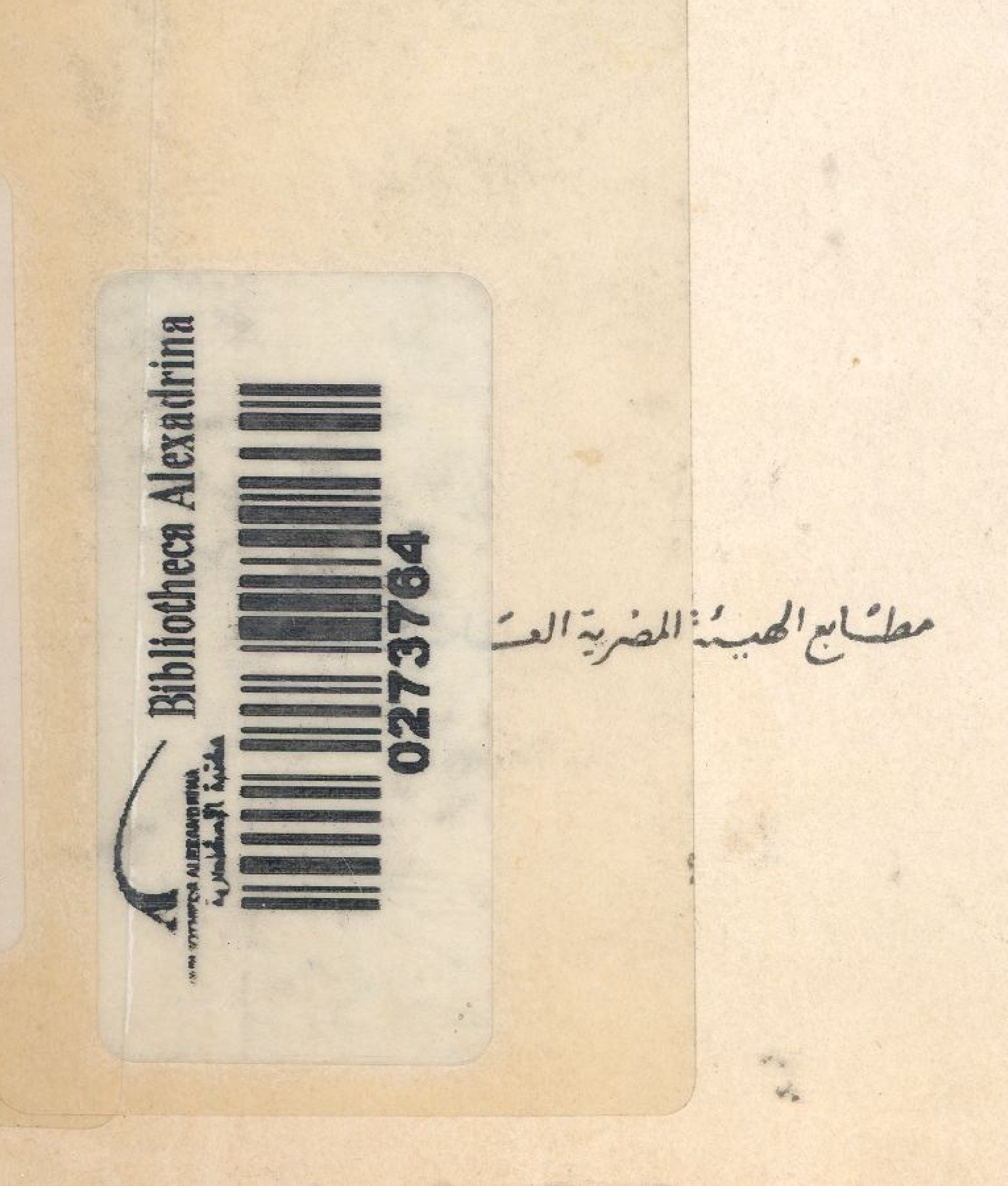
ويفيض المؤرخ فى سرد أعمال الفاتح وجوره ، وما أصاب شعب مصر من بطشه وعسفه ، حتى مغادرته مصر . ثم يتتبع أخبـــاره بعد ذلك حتى وفاته عام ٩٢٦ هـ (١٥٢٠ م) ويترجمه بهذه المناسبة ويرثيه بأبيات من نظمه . ومن الغريب أن ابن اياس يبدى فى عواطفه نحـــو الفاتحين ترددا واضطرابا فنراه يحمل على سليم الأول ، ويعدد جرائمه ومثالبه فى حق وطنه ، ثم نراه فى نفس الوقت يلقبه بالملك المظفر ، ويترحم عليه حين يذكر نبأ وفاته ، ويدعو بالنصر لولده وخلفه السلطان سليمان . ومن الصعب أن نضبط عواطف المؤرخ . فى هذا الموقف ،

وفى كثير غيره . ومن الصعب أيضا أن تتعرف حقيقة المؤثرات التى ربما دفعت قلم المؤرخ ، بما قد يخالف حقيقة عواطفه . فلعله وهو ينحدر من أصل شركسى أو تركى ، يتأثر هنا بنوع من عصبية الجنس. ومن جهة أخرى فقد كان ابن اياس « يدون روايته ، فى عهد اضطراب وفتنة ، وربما كان هذا التردد بين المديح والذم ، نوعا من حرية التقدير والنقد عن ابن اياس .

هذه هى رواية ابن اياس عن حوادث الفتح العثمانى — وهى وثيقة تستمد قيمتها رغم ضعف بيانها ، من المعاصرة والمشاهدة . بيد أنه يجب ألا نبالغ فى تقدير مدى هذه المشاهد — فان ابن اياس لم يكن جنديا يخترق الصفوف ، ولم يكن من رجال الدولة أو القادة . والظاهر أيضا أنه كان قليل الطواف والتنقل فى تلك الأيام العصيبة التى يدون لنا حوادثها ، فهو مثلا لم يحاول أن يرى سليما الأول بالرغم من اقامته فى القاهرة عدة أشهر ، وهو لذلك يعتمد فى وصف شخصية على صديق رآه ، ولا غرو فقد كان ابن اياس فى ذلك الحين شيخا يجاوز السبعين . وربما لحقته أوصاب المرض . غير ان ابن اياس كان أديبا ومفكرا كبيرا ، يتصل بأكابر عصره — وكان فى وسعه أن يتحرى من المصادر والجهات المطلعة . وكان يشهد بعينه كثيرا من المناظر والآثار المادية لما يدون من الحوادث . ومن ثم كانت أهمية روايته ونفاستها .

واذا كانت رواية ابن اياس عن حوادث الفتح العثمانى لمصر ، تقل فى عرضها ووصفها ، من حيث البيان والتصوير ، عن رواية قرينه فرانتزا عن حوادث الفتح العثمانى للقسطنطينية ، وتخلو من التعليقات النقدية التى تمتاز بها رواية فرانتزا ، فانها مع ذلك ، تبقى الى جانب الرواية البيزنطية ، قرينتها الوحيدة من حيث التماثل والقيمة التاريخية، فى تاريخ الفتوحات العثمانية .

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٧/٣٠٨٧
ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٢٨٣ ٩



مطابع الهيئة المصرية العا

٦٥ قرشا